قلت لِحماري

د. محمد سعيد التركي

الكتاب : قلتُ لِـ حماري

المؤلف : د. محمد سعيد التركي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع : ٥٣٧٢ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 249 - 6

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور. الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس: ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



قلت لِحماري

د. محمد سعيد التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

▪ *تعريف :*

كتاب "قلت لِـ حماري"، كتاب فكري أدبي يستخدم الجدال في طرح الأفكار، وهو يعالج الأفكار المطروحة عالميًا للمبادئ المختلفة، الرأسمالية ومنها الديمقراطية والمبدأ الاشتراكي وغيرهم من المبادئ النفعية، وكذلك الفكر الإسلامي، ووجهة نظر الإسلام.

يصوِّر الكتاب شخصية رجل الشارع في العالم، والأفكار التي يحملها والمقاييس والقناعات التي يبني عليها معاملاته وعلاقاته بنفسه، وعلاقته بغيره من الأفراد والمجتمعات.

كما يصوِّر الكتاب طريقة التفكير التي ينتهجها ويستخدمها العالم اليوم، في التعامل مع أمور الحياة العامة، والأفكار والمبادئ المطروحة في العالم، وطريقة التفكير في إعطاء وجهات النظر في الأحداث العالمية الكوارثية، وفي كيفية إيجاد الحلول للمشكلات، على المستوى الشخصي والجماعي والعالمي.

كما يتحدث عن مسائل تهم بناء شخصية الفرد، وما يترتب على بنائها من علاقته بالحياة التي تحيط به، كالحديث عن الحرية والسعادة وأهميتهما، ككثير من الأفكار في بناء الشخصية.

▪ منهج الكتاب :

كان لا بد للحديث عن هذه المسائل الانطلاق أولاً من موقف منهجي وفكر محدد وبيّن، حيث يتوجب الحديث عنها التعرض للمسائل العقدية والأفكار المتعلقة بالعقائد، وكذلك كان لابد من أن تكون الفكرة واضحة وضوح الشمس حتى يمكن لها مقارنتها مقارنة بيّنة بالأفكار الأخرى، والعقائد المختلفة التي تقابلها.

وكون أن الكتاب ينطلق من منطلق الحقيقة، أن العالم أجمع في يومنا هذا يعيش أزمة فكرية وسلوكية، سياسية واجتماعية واقتصادية وأمنية، على المستوى الإنساني والأخلاقي والروحي والمادي، فقد اتخذ الكتاب منهج لفت نظر القارئ لكثير من المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تهمه، وتهم العالم أجمع في جميع جوانب الحياة، بأسلوب أدبي شيق أحيانًا، وقاسي أحيانًا، وباعث للتفكر والتدبر أحيانًا أخرى.

هذه الجوانب في الحياة قد يقف الإنسان منها في يومنا هذا موقفًا سلبيًا، بالرغم من معاناته وآلامه والبؤس الذي يعيشه بسببها، وذلك إما لعدم علمه أنه يعيش أزمة ابتداءً، أو علمه بها ولكن جهله بأسباب حدوثها، أو علمه بأسبابها ولكن دون العلم بالبدائل التي عليه أن يطالب بها، أو علمه أنه يعيش والناس والكرة الأرضية أجمع أزمة حقيقية يعلمها ويعلم أسبابها ويعلم بدائلها، ولكنه لا يعرف الكيفية للخلاص منها، أو يكون من فئة المنتفعين من المصائب التي تعيشها الأمة بحكامها، ولكنه لا يرجو تغييرها لمناقضتها مصلحته، أو يكون من الفئة التي تفتقد من الأساس العزيمة للتغيير بالرغم من علمه بكل هذه الأمور.

لذلك فقد كان لزامًا أن يوضِّح هذا الكتاب ماهية الأزمة التي يعيشها العالم أجمع، وخاصة العالم الثالث فيه، بغض النظر عن الأجناس أو الألوان أو الأديان، وأن يوضح أسباب حدوث هذه الأزمة، والمصائب التي تترتب على السكوت عليها،

ويناقش البدائل التي يجب على العالم أن يطالب بها ويتبناها، وكذلك يضع تصورًا لكيفية التخلص من هذه الأزمة التي يعيشها العالم، والتي هي في الأساس أزمة فكرية، قبل أن تكون أزمة أخلاقية أو انسانية أو اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، لأن هذه المسائل مبنية على الفكر وعلى تبني الأفكار.

ولذلك انتهج الكتاب الأسلوب الجدلي، بطرح الأفكار العالمية ومناقشتها، ومناقشة ما يغايرها من أفكار، بدءًا من الأفكار الأساسية، أي العقائد، ومرورًا بالأفكار الفرعية المتعلقة بها، وانتهاءً بالأنظمة المنبثقة منها.

وقد انطلق الكاتب في طرحه من وجهة نظر الإسلام، كقاعدة فكرية يقارن بها الأفكار والمبادئ الأخرى في معالجته للمشكلات المترتبة على العلاقات بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين غيره من الأفراد، وعلاقات المجتمعات مع بعضها البعض ابتداءً، والدول مع بعضها البعض انتهاءً.

▪ *أهمية هذا الكتاب :*

إن الأوضاع المؤلمة في العالم من مجاعات وفقر ومرض لثلثي سكان العالم، وخاصة لما يسمى بالعالم الثالث، وهيمنة الرأسماليين على العالم، والحروب الظالمة والمدمرة التي يقودونها في العالم، التي لا تدع مقاتلاً ولا بريئًا، ولا تفرق بينهم، ولا تفرق بين أرض المعركة وباقي الطبيعة في الأرض التي يعيش فيها الإنسان، وأعمال الاحتلال والاستعمار المباشر وغير المباشر التي تقوم بها الدول القوية للبلدان الأخرى، والهيمنة والتسلط على مقدرات الشعوب من داخل الدول ومن خارجها، والاستسلام والخضوع والخنوع للعدو الظالم المعتدي، والتدهور الخُلقي والإنساني في العلاقات البشرية، وقبول بعض الشعوب العيش على دماء

وأموال غيرهم من الشعوب، كل هذه وغيرها كثير من الحقائق التي هي حديث اليوم والساعة تعطي مؤشرًا واضحًا للانحطاط الفكري الذي يعيشه العالم أجمع.

فكون أن أمّة تقوم وتقبل بالظلم في حق غيرها وتجاهر به، وأمة أخرى تقبل بالظلم وتستسلم له وتشرب سمّه وتسكت عنه، فإن هذا وذاك لا تفرق بينهم خلقة الخالق شيئًا، اللهم اختلاف الفكر هو الذي يفرق بينهم.

لذلك فإن للكتاب أهمية قصوى في لفت نظر العالم أجمع للفكر السائد الذي يتبنونه وتسير الأمور بحسبه، هذا بفكره المصلحي التسلطي، والآخر بفكره الاستسلامي الضلالي، وكذلك للفت النظر لأثر هذا الفكر في سلوك الأفراد والشعوب والدول.

فالكتاب يكشف للقارئ نوعية الفكر الذي يحمله، والمقاييس والقناعات التي يعيش بها، ويكشف له طريقة التفكير التي يستعملها لتحقيق مصالحه وبناء العلاقات مع من حوله، ويكشف له عن الثمرة التي يحصدها من خلال تعاملاته التي تتصف به، ويتصف هو بها، وكيفية الحياة التي يدعو الناس إليها، ويعرض له وجهة نظر جديدة قد لا يكون على علم بها أو اطلع عليها أو تصورها، ويكشف للقارئ كذلك أن الأفكار التي يحملها الأفراد إنما هي صورة للأفكار التي تحملها دولهم تجاههم وتجاه الدول والشعوب الأخرى.

▪ *أسلوب الكتاب الأدبي:*

لذلك فقد اتخذ الكتاب أسلوبًا أدبيًا شيقًا، في هيأة حوار وجدال بين طرفين مغايرين، حيث أن المواضيع التي يتحدث عنها الكتاب مواضيع فكرية غير سهلة التناول عادة، كما هي لعامة القراء غير سهلة الاستيعاب، ويصعب الاستمتاع بها إذا لم تُقدم بصورة شيقة، وسهلة الطرح والأسلوب، ولذلك اتخذ الكتاب هذا الأسلوب في هيأة حوار وجدال بين طرفين، الكاتب فيه هو الطرف الأول، أما

الطرف الثاني فهو نموذج حي لشخصية رجل الشارع البسيط، والرجل المثقف، وطالب العلم، وأصحاب الشهادات العليا، في صورة مخلوق حيواني، اختارها الكاتب لتكون "الحمار" لاعتبارات سيذكرها الكاتب لاحقًا في مقدمته.

عرض الكتاب كثيرًا من التحاليل النفسية والعقلية لشخصية الأفراد، استنادًا للأفكار التي يحملونها، وذكر أثر هذه الأفكار عليهم في سلوكهم الاجتماعي، وأثرها على مواقفهم من الحياة الرديئة التي يعيشونها، اجتماعيًا واقتصاديًا ودوليًا.

قدم الكتاب هذا الحوار في خمسة عشر فصلاً لمواضيع مختلفة وذلك لغرض التبسيط والتشويق للأفكار المُتناولة.

مقدمة الكاتب

صديقنا بطل الحوار هو "الحمار"، ولم يكن ذئبًا ولم يكن أرنبًا أو فيلاً، كون أن الإنسان بادئ ذي بدء وعلى مرِّ العصور قد ألصق مفهومًا وصفةً محددة بكل حيوان رآه، ثم أصبح هذا المفهوم شائعا وملتصقًا بكل حيوان عرفه، حتى ولو لم يكن هذا الحيوان أو ذاك به شيء من تلك الصفات التي تصورها الإنسان عنه.

ولذلك نجد أن الإنسان قد ألصق صفة الملوكية والشجاعة بالأسد، بالرغم من أن الأسد في الحقيقة لا يحمل تلك الصفات التي ألصقت به، أو قد ألصق صفة اللؤم والغدر بالذئب، والذئب في حقيقته لا يحمل تلك الصفات.

على جميع الأحوال فإن هذه المفاهيم عن كل حيوان قد ألصقت به وكفى، ولا جدوى لتغييرها من أذهان البشرية أجمع.

شأن ذلك شأن بطل الحوار "الحمار" في كتابنا هذا، فهو الحيوان الذي قد عُرف بغبائه المفرط، وعُرف بذلته وقلة حيلته وهوانه، بالرغم مما يحمل من قوة عضلية، ومن قوة تحمل للمشاق.

بلا شك إن الحمار كغيره من البهائم لا يعقل، والبهائم كلهم لا يعقلون، مثلهم كمثل الحمار سواء بسواء، ولكن كون الحمار قد أصبح نموذجا للبهيمية الصرفة، فقد استخدمته بطلا في حواري، فالناس كلهم يعرفونه، ولا يعرفونه إلا بتلك الصفات.

كذلك كون الحمار رفيقا دائمًا لمن يستخدمه للتنقل، فإني أنطقته مجازًا، فلعل ذلك يكون ممتعًا للقارئ بشكل أو بآخر، حيث أنه شيء خارج عن المألوف.

وحيث أن الحمار قد أُعتبر من جميع الناس مثالاً جيدًا للبهيمة من بين البهائم، وحيث أننا نريد نحن هنا أن نُنهضه من دركه إلى درك العاقلين، بدلاً من أن نُنهضه إلى درك الكلاب مثلاً، فهذا أمر معجز وخيالي، ولكن ماذا لو قام الإنسان فعلاً بخوض هذه التجربة عنادًا وعزيمةً ماذا سيحصل يا ترى، وما هي المواقف التي سيواجهها الإنسان مع هذا الصنف، وكيف تراه سيتفاعل مع هذا الإنسان الذي حمل على عاتقه فعل المعجزات؟

لقد صوَّر الناس حقيقة انهاض غير العاقلين أو الجاهلين إلى أناس يعقلون، كهذه الصورة التي صورتها، أنها من المعجزات أو من الخوارق، ولكن أصحاب الهمم العالية والعزائم الصلدة، وأصحاب السعي المتواصل لا يعترفون ولا يحبون إدراك وجود المصاعب ويتحدون المعجزات. حتى شبه الناس المريد العازم على انهاض الجاهلين أو المتأخرين من الأمم، وتحويلهم أو بالأصح تغيير واقعهم، كالذي يريد أن يُنطق الحمار ويحوله من بهيمة إلى رجل عاقل.

إذن فلندخل هذه التجربة، على مرأى ومسمع من القارئ، ولنرَ ما ستؤول إليه هذه الدعوة لعالم الحمير، لتغييرهم من حمير إلى عقلاء، ولنرَ ما مدى استجابتهم لهذه الدعوة، وما هي أبعاد النجاح فيها، وهل سيكون هذا ممكن في الحقيقة، أم هو ضرب في الخيال، وترف في الدعوة؟

أرجو أن يدعو القارئ لي ولحماري بالتوفيق، وأن يشملنا الله برحمته، إنه سميعٌ مجيبُ الدعاء.

المؤلف

محتويات الكتاب

قال الله تعالى:

﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾

وقال تعالى:

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ
إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

صديقي الحـمـار

خرجت باكرًا كعادتي في صباح يوم إلى عملي، وركبت حماري قائلاً له :

السلام عليكم

ردَّ عليَّ قائلاً :

صباح الخير يا سيدي...

هل قرأت كتاب توفيق الحكيم الذي عنوانه "قال لي حماري"؟

قلت:

لا،، لم أقرأه.. وما عسى أن يكون به حتى أقرأه؟

أضفت سؤالاً آخرَ، قائلاً :

وهل عسى أن تكون قد قرأته أنت؟

قال:

كأنك يا سيدي تستنكر سؤالي، فالأجدر بك أن تكون قد قرأته أنت، أو اطلعت عليه، كون الكتاب عملاً أدبيًا، وأنت تدعي الأدب، أما أنا فليس لي ولأمثالي أن نقرأه.

قلت لحماري:

ولماذا؟

قال:

لأني أنا حمار، ولا أقرأ، ولا أجد ضرورة للقراءة، ويشغلني كثيرًا كما تعرف بعض الأعمال والنوم الهانئ في الليل والنهار، والأكل والشرب والأسفار.

قلت لحماري:

ولمَ اهتمامك بكتاب كهذا إذن؟

قال:

لأنه يوحي من عنوانه أن به شيئًا من الاحترام والتقدير لجنس الحمير.

قلت لحماري:

وهل عندكم معشر الحمير شيء من الإحساس والرغبة في الاحترام والتقدير؟ فذلك لا يبدو لي من تصرفاتكم.

قال:

بل عندنا، ولكنا بحاجة لمن يفهمنا، ويفهم مشاعرنا

سكتُ، وسكت الحمار وأنا أحدث نفسي:

كم من الأحايين الكثيرة أدركُ أن الحمير لا تُدرك، بل لا تريد أن تدرك، ولكن بعضهم كحماري هذا ينبئوني ببعض الذكاء، مما يثير عندي نزعة تحدٍ قوية لأن أستغل ما عنده من الذكاء، وأعلّمه وأبنيه بناءً فكريًا، فأنقله من عالم الحمير إلى عالم العقلاء، فأكون قد نفعت حماري والحمير الآخرين، وأشبعت نزعة التحدي الجامحة التي أملكها، وأشبعت نزعة نقل العلم إلى غيري، وأكون قد حققت نصرًا عما عجز عنه الملايين غيري ممن يدعون الأدب والفكر، بنقل الحمير من حمير إلى عقلاء، ثم إلى أدباء ومفكرين، بل وعلى الأقل من ذلك، أنقلهم من مناهضين للثقافة والفكر إلى عاملين على خدمتها، بل وعلى الأقل من ذلك كله أن لا يقف الحمير حجر عثرة لما ينتجه الفكر والعلم في سبيل النهضة.

أخذت أحادث نفسي بهذا طويلاً، وأنا تشدني لهفة عارمة لهذه المغامرة، التي تتطلب صبرًا وعندًا وكيدًا عظيمًا، وبقيت على ذلك بين أخذٍ وردٍّ، وإقدام وإحجام، لم تستقر عزيمتي فيه على قرار، حتى سئمتُ، فتركت الأمر معلقًا بين هذا وذاك، وودعته للأيام وحسب، وكما تمليه علينا الظروف أنا وحماري.

استأنفت حديثي مع حماري يومًا فيما قد تحدثت به معه من قبل، فقلت لحماري:

لقد فكرت فيما تحدثنا به يومذاك، في أمر ما تحملونه معشر الحمير من أحاسيس، وأن لديكم مشاعر، ولكني ما زلت لا أجد ما يدل على تفاعلكم لما يثير عادة أحاسيس الفرح والغضب والغيرة والحمية والتنافس عند العاقلين، ولا أجد عندكم أمورًا أخرى كالشجاعة والبطولة وإغاثة الملهوف والكرم، وغير ذلك كثير، أي والمعذرة إليك إن قلت لك، أن بكم بلادة مطلقة لا حد لها.

قال:

مهلاً عليّ يا سيدي، فأنا لا أفقه شيئًا مما قلت!!

قلت لحماري:

وهل قلت لك شيئًا لا يقدر على فهمه كل شخص؟

قال:

يا سيدي، لا تنسَ أني حمار، ولو كنت أفقه ما تقول لما كنت حمارًا.

قلت:

وماذا في قولي مما لا يمكن فهمه؟

قال:

كل شيء، بدءًا من كلمة إحساس وانتهاءً بكلفة ملهوف.

قلت:

ولكنك حمار كبير، والأجدر بك أن تعرف معاني هذه الألفاظ على الأقل.

قال:

بل أعجب أنا منك، بأنك تجد فرقًا بين حمار صغير والحمار الكبير، يا سيدي إذا حافظ الحمار على حميرته يبقى دائمًا حمارًا، وأنا كغيري من الحمير أخلصنا لهذه الحميرة وحافظنا عليها فتأصلت عندنا، فكلنا صغارٌ أو كبارٌ حمير، لا فرق.

قلت:

بل عجبًا منكم ومنك، أنك تعي أنك حمار، وثانيًا...

قاطعني قائلاً :

رحم الله امرًا عرف قدر نفسه.

قلت:

وثانيًا أنك وعشيرتك من الحمير ترضون بقاءكم حميرًا لا تفقهون.

قال:

يا سيدي إن سمحت لي يومًا آخذك لقومي فتعاشرنا وتخالطنا مدة، فتقدر حينها أن تتعرف جيدًا على عالمنا.

سكت، وعدت إلى نفسي أحادثها، بعد أن أطرقت مليًا، فلقد أفهمني حماري دون أن يشعر أني أجهل أحد أهم جوانب الحياة الاجتماعية، التي لا بد لكل من يدعي الأدب أو الفكر أن يكون عالمًا بها، فكيف بي تراودني فكرة تعليم حماري، وأعمد على بنائه فكريًا، إذا كنت نفسي أجهل مقدار الفكر والفهم الذي يحمله هو، ويحمله باقي الحمير.

على هذا فقد توجب علي أن أدرس واقع الحمير بشكل عميق، وأدرس عقلياتهم ونفسياتهم وأخالطهم مخالطة مؤثرة أتعرف من خلالها على مفاهيمهم وسلوكهم وطريقة تفكيرهم، وبالتالي أحسن كيفية مخاطبتهم بما يُرضيهم ولا يُسخطهم عليّ، ولا أستفز فيهم حميةً قد لا يحسدني على مواجهتها أحد، لذلك الحذر بما أنا قادم عليه مع معشر الحمير.

فصدقت بداهة حماري بأنه عليّ معاشرتهم ومخالطتهم، إن كانت لديّ الرغبة أو الإرادة لتغيير عقولهم وإصلاح أحوالهم، وإلا كنت كالذي يضع الفعل في غير موضعه، فيقدّم للأسد شعيرًا، وللحمار لحمًا، جهلاً بالتفريق بينهم.

ولكني لم أكن إلى هنا قد أخذت على عاتقي تحمل مشاق هذه المهمة بإرادة صادقة، فالإرادة شيء والرغبة شيء آخر، فالإرادة مناطها العزيمة والعمل لتحقيق الغاية، أما الرغبة فقد تتوقف عند الأماني، مع قليل من العمل وانتهاز الفرص. أما إن أردت ذلك فعلاً فيجب أن أخلص لما أردت، وإذا أخلصت وجب عليّ تحمل تبعات هذا الإخلاص، من واجبات وتكاليف ومشقة ومخاطر، شأنه شأن أي فعل آخر، وإن كنت فاعلاً حقًا، فقد وجب عليّ مخالطة الحمير ومعاشرتهم كما رأى حماري.

أما الإرادة لتغيير واقع ما، فهي في الحقيقة لا تكفي وحدها للتغيير، فقد يقوم أحدهم بتغيير واقع ما، وينجح بتغييره، ولكن يكون قد غيره إلى واقع أسوأ من الذي قبله، فيكون الذي قام بالتغيير قد أساء بدلاً من أن يحسن، بالرغم من كل الجهود التي بذلها في هذا السبيل.

ولذلك يجب أن آخذ حذري فيما أنا عازم عليه في مشروع التغيير، لألا يكون هذا مشروع نكد وهم وشر عليّ وعلى الحمير، بدلا من يكون لهم تحريرًا ونهضة، فأكون من المفسدين المضلين، بدلا من أن أكون من المصلحين.

ولذلك على الإنسان أن يفكر مليًا في صحة وصدق ما يحمل، وثانيًا إن كان ما يحمل ليس من ضرب الخيال والوهم، وثالثًا أن يفقه ويتقن الكيفية التي يريد أن يغير بها واقع مجتمع ما، وإذا ما كان قادرًا لوحده على أمر جليل كهذا؟
ناهيك عن المصاعب التي تواجه أحدهم في سبيل مشروع خطير كهذا.

لأعد إلى نفسي فقد ذهبت بعيدًا وتجاوزت بأفكاري تغيير واقع حمار ما، إلى تغيير واقع كل الحمير، وتغيير علاقاتهم وأفكارهم.

وقد بدا لي الآن الأمرُ واضحًا وجليًا، بصعوبته وتعقيده، وأنا لا أحب الأفكار التي تحبط العزائم، وتضعف الهمم، ثم تقود الإنسان إلى الكسل.

ولكن بالرغم من وجوب الوعي بكل هذا، فالواقع النظري يختلف في جوهره ومظهره عادة عن الواقع العملي، فقد يكون أسهل منه وقد يكون أشد صعوبة.

على أي حال، إن كنت صادقا مع نفسي فأنا لن أقدر على معاشرة الحمير أو مخالطتهم، بعد أن أكرمني الله بنعمة العقل والفكر الراقي، فأنا لا ولن أحسن مخاطبتهم باللغة التي يحبونها، ثم إن الفكر الذي أحمل قد صنع بيني وبينهم حاجزًا وفجوة، لا أستطيع بعده أن أتخطاه، فأنزل إلى مستواهم الفكري المنخفض، ولا هم قادرون على أن يتخطوه فيصعدون إلى مستوى الفكر الذي أحمل، ولذلك سأكتفي بحماري والحديث إليه، والتفاعل معه ودفعه للتفاعل معي، وربما سأتمكن من خلاله التعرف جيدًا على عالم الحمير، وعندما أتمكن من تغييره، يكون هو الذي سيحمل فكري إلى عالم الحمير الذين يفهمونه ويفهمهم، ويكون بذلك سفيري إليهم.

عاودت الحديث مع حماري فقلت له :

إذن فحدثني عن عالم الحمير شيئًا لا أفقهه

قال حماري:

لقد كان من أجدادنا من هو حكيم مثلك، يردد كلامًا لا نفهمه، ولا يفهمه إلا قليل منا، وكانوا هم الذين بيدهم مقاليدَ الأمور، وكانوا هم الذين يأمرون وينهون، ويحلون ويربطون، ثم مر على هذا الحال أزمان، فأهمل هؤلاء من حولهم، وصار المال والعلم لا يُتداول إلا بينهم، وفي نواديهم، وقد كان مَن حولهم يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم، ولم نكن من قبل ذلك حميرًا، إلى أن شح العلم والمال بيننا، فقلّت حيلتُنا، ولم نعد نميز بين الخير والشر، وبين الخبيث والطيب، ولا نعلم أين منابع الخير، وأين منابع الشر، حتى مَكَرْنا لهؤلاء القلة القليلة الباقية من علمائنا وحكمائنا، فسفهناهم وقتلناهم، بدلاً من أن نصلح شأنهم أو نمهلهم.

فانقطع ما بقي عندنا من خير، وازداد حالنا سوءًا، ثم قمنا نبحث عن ما يسد جوعاتنا، ويستر عوراتنا، ويحفظ أمننا، ويحمينا من بأسنا، فلم نجد من حكمائنا وعلمائنا بقية نعود إليهم فينقذوننا مما نحن فيه، ولكنا لم نجد لهم أثرًا، بل لم نجد إلا أشرار منا قد استحوذوا على المال والسلطان، وعلى الأرض وعلى كل شيء.

ففزعنا إليهم،، فابتلونا وتفحصونا، فمن كان منا حمارًا قربوه، ومن كان منا بين ذلك طمّعوه حتى استحمر، وصار منهم ومن أوليائهم، ومن المقربين عندهم.

أما من أبى، مات جوعًا أو قتلاً،، فاستسلم خلفُه ورضخوا وذلوا وتذللوا، حتى أصبحوا من زمرتنا، وأصبحنا كما ترانا اليوم كلنا حمير.

قلت لحماري:

لقد صورتَ لي الأمر بشكل حسن، ولكن ألا يطمح الحمير الآن أن يعودوا أسيادًا كمن قبل وكالذين كانوا من قبلهم؟

أوَ لم يظهر من بينكم أحدٌ من قبل أو الآن قام يسعى لأن يعيد أمجادكم أو شيئًا من أمجادكم؟

قال حماري:

يا سيدي ما قد فات فقد مات، وليس هو في يوم راجع أو آت.

ولكن ويحك يا سيدي، عن أي مجد تتحدث؟

لقد أصبحنا كلنا حميرًا، ونحن سعداء بما نحن فيه، ومن استغبى منا وعادت تساوره أحلام المجد الذي تتحدث عنها، فليس له إلا أن يقمعه القامعون ويكتموا أنفاسه، ويشردوا عياله، ويدمروا عروش بيوتهم على رؤوسهم.

قلت:

أوَ لا تتمنون أن تكونوا ذوي سلطان ومجد وسيادة وعزة؟ وهو أمر فطري يتمناه كل مخلوق، إنسانًا كان أم حيوانًا.

قال:

بلى، بلى، يا سيدي، كنا قديمًا تساورنا الأماني وتسامرنا الآهات عن الماضي التليد.

قلت له :

والآن؟؟

قال:

الآن؟؟ لم نعد الآن نتمنى حتى،، فقد اعتدنا أن نبقى حميرًا.

قلت:

وماذا عن تاريخكم؟

قال حماري:

لقد قالوا لنا إن تاريخنا وأمجادنا كانت عظيمة، وبلغ سلطاننا مشارق الأرض ومغاربها،، ثم تغير الكلام، وقالوا لنا إن ذلك لم يكن، بل كنا متفرقين ومتنازعين، ويقتل بعضنا بعضًا، بل قيل أنه لم يكن يشغل حكامنا إلا النساء والجواري، وأنه قد كان هناك خلفاء لم يكن يشغلهم إلا بناء القصور، وتبذير الأموال على الشعراء والمقربين، ومجالس اللهو وغير ذلك كثير.

قلت لحماري:

وأي الخبرين تصدق؟

قال حماري:

يا سيدي،، نحن معشر الحمير إن صدّقنا أن الأرض قد سادت لنا يومًا، فقد نصدق ذلك ولكن على مضض، لأننا لا نتصور هذه الحقيقة أساسًا، وكذلك لا نجرؤ أن نقول للناس عنها، ونحن كما ترى اليوم في زمرة الحمير، فنتعرض إذن لسخرية الساخرين.

والأفضل أن نقول بما يتوافق مع واقعنا الآن، أنا كنا كما نحن عليه الآن، لأننا لو قلنا بما تؤكده الحقائق التاريخية، فسيزيد العالمُ تحقيرنا والاستخفاف بنا، كوننا أهملنا حضارتنا وتحولنا من عقلاء إلى حمير، وكفى ما بنا.

بل سنتعرض لاحتقار وسخرية أبنائنا وأحفادنا، كوننا راضين اليوم بما نحن فيه، ولا نعمل لتغيير واقعنا.

ثم إن قلنا ذلك، فكأننا نطالب ضمنًا بأن تعود الحال القديم إلى أصلها، وهذا مالا طاقة لنا عليه، ويكلفنا كثيرًا، ويجعلنا نلقى مصير من سبقونا الذين طالبوا بحريتهم فقتلوهم وسجنوهم وعذبوهم.

ولذلك فإننا نرى، حتى ولو كان ذلك فيه مغالطة لأنفسنا، ومغالطة للتاريخ والناس أجمعين، أن نقول أن حالنا الآن هو خير من حالنا قديمًا.

أو نسكت فلا نقول شيئًا، وهذا خير لنا ولغيرنا.

والله لقد أدهشني حماري كثيرًا، وأكثر ما أدهشني منطقه، فلم أكن أتصور يومًا أن بين الحمير حمارًا واحدًا يفهم ويعي ما يعيه حماري، لقد قللت من شأنه كثيرًا وأسأت الظن به، وأسأت الظن بعالم الحمير أجمع، ولذلك يجدر بي أن أصلح من شأن ظني بهم، وما كنت قد أخطأت في حقهم، ويجدر بي أن أتبين الأمور مستقبلاً قبل أن استعجل الحكم عليهم، وخاصة فيما يتعلق بعقولهم ونفسياتهم، وأن في المسألة بيان.

بالرغم من ذلك فإني أرى تناقضًا فيما أرى من واقع، فإذا كان الحمير يعون ما يعيه حماري فلماذا بقي حماري وعشيرته حميرًا؟

سأتبين ذلك لاحقًا، لربما يكون حماري هو الوحيد الذي يعي ما يعيه من بين مئات الملايين من الحمير، فأكون قد أخطأت وقست الشاهد على الغائب.

ولكني أسائل نفسي فأقول: أوَ لو جمع الحمير أمرهم وشتاتهم قليلاً، ألا يتغير حالهم، أما كان لهم ذلك؟،، فتعود لهم الأرض مهادًا والجبال عروشًا؟ إني أراهم أكبر الشعوب رؤوسًا وأعظمهم أجسادًا، وأكثرهم تحملاً، وأنجبهم شعوبًا، وأدأبهم حركة من غيرهم، فلماذا يبقون حميرًا؟ ولماذا يركبهم الراكبون، ويجلدهم الجلادون، ويمتطي ظهورهم السفهاء والجاهلون، ويذلونهم وهم راضون؟.

لقد بت مشغولاً بأحوالهم، مستديم الفكر بواقعهم، فهم أدقع الأمم فقرًا، وأكثرهم مرضًا، وأشدهم جهلاً وأعظهم ذلةً، حتى أن العالم إن أراد أن يسخَر بأحد، استخدمهم مثلاً، فأصبحوا مضربًا للأمثال وللعبرة، وأقبح الأمم سيرة.

لا بد من وجود خلل ما عندهم عنيف، فالخلل إما في الفكر الذي يحملونه، والمفاهيم التي تنطلق من هذه الأفكار، أو أنّ الخلل يكمن في طريقة تفكيرهم، أو في المقاييس التي يقيسون عليها أعمالهم وحل مشاكلهم، أو في كلها مجتمعة، فالأصل باطل والفرع باطل.

لقد استفزني حماري كثيرًا ونجح لأن أخوض غمار تحدٍّ كبير، قد عجز النجاح فيه من كانوا خيرًا مني، ومن كانوا قد أبلوا شبابهم وأفنوا عمرهم فيه قبلي، ولم ينجح فيهم أحد لتغيير عالم الحمير إلى عالم عقلاء مثير.

قلت لحماري أمتدحه :

لقد أعجبني ما قلت آنفًا، وأكبرتُ فيك وعيك وذكاءك.

قال يهز رأسه الكبير فخرًا:

نعم،،، نعم،،،

قلت:

ولكن أمَا كان من الأجدر بك وبغيرك من الواعين، أن تستغلوا هذا الوعي وهذا الفهم فتنهضوا بأنفسكم، بدلاً من الرضى بقاءكم حميرًا؟

قال حماري:

مهلاً يا سيدي، أرجو أن لا تخطيء في حقنا أنا وقومي، ولا أراك إلا فاعل ذلك.

قلت:

المعذرة إليك، وما ذاك؟

قال:

إني وعشيرتي من الحمير فخورون بأننا حمير،، ولا أرى في ذلك عيبًا أو نقصًا، ونحن نقوم بأعمال لا يقوم بها غيرنا، فنحن نحملكم ونحمل الأثقال، ونجر العربات، نقوم بأعمال منخفضة، وأخرى خسيسة، وغيرها جليلة فنكسب أقواتنا، وتكسبون انتم من خلالنا أموالاً كثيرة.

ثم أنت وأمثالك تتهموننا بالتقصير؟

قلت لحماري:

ما عاذ الله أن أفعل، وما ذاك؟

قال:

اتهمتني وعشيرتي بعدم القيام بأعمال النهضة

قلت لحماري:

وماذا تفعلون إذن،، في سبيل النهضة؟

قال:

ألا ترى عضلاتي ورشاقة جسمي؟ ألا يكفيك هذا دليلاً على ممارستي الرياضة البدنية، وتفوقي وعشيرتي على غيرنا من أبناء الأمم الأخرى، في الجري والقفز والرمي، وفي المصارعة والملاكمة، وفي كرة القدم وغيرها؟

آخ كرة القدم ،،، ألم تشاهد كيف هزمنا الحمير الصفر في بطولة العالم في الدور الأول، وتعادلنا معهم في مباراة أخرى، وكدنا نفوز عليهم وندخل الدور الثاني؟ و...

أو لم تقرأ عنا في الصحف، وأو لم تشاهد حين ذكرتنا وسائل الإعلام عندما تفوقنا على باقي الأمم في كثير من المجالات الرياضية؟

ثم ألا ترى تفوقنا "أمة الحمير" من ضمن باقي الأمم المتفوقين في شتى فنون الغناء والموسيقى والرقص والتمثيل والفنون التشكيلية وغيرها؟

حتى التي لم نتفوق فيها، فإننا ننافس غيرنا فيها، والمستقبل أمامنا لأن نسبقهم عليها.

ثم ألا تسمع عن أبطالنا في سباق السيارات والقوارب البحرية، وسباق الهجن والخيل؟؟

أو ليست هذه كلها مشاهد على نهضتنا؟

سكتُ مليًا وقد أصابني الذهول لما سمعت، وأنا أقول في نفسي وامصيبتاه، ويا خيبة أملي، بعد أن عقدت آمالاً عظيمة على حماري، وذكائه ووعيه، أجده يفخر بحميرته، بل ويظن أنه وعشيرته من الحمير قد سابقوا وسبقوا الأمم في النهضة، بأن سبقوهم في الرياضة والفن،، صحيح أن ما قد أنجزوه قد نسميه نهضة رياضية، ولكن تلك ليست هي النهضة التي أقصدها، التي تنقلهم من عالم الحمير إلى عالم العقلاء.

حسنٌ، لو جادلته الآن وهو في غاية حماسه، فقد يحصل ما لا تحمد عقباه، وقد أعرّض نفسي لسوء أدبه أو شتمه أو قذفه أو صياحه أو رفسه،، لا أدري،، أو أن يقذفني بتهمة لا تليق بمقامي، فهو في قمة نشوته وفخره بحميرته وقوة عضلاته، وإني أخاف مجادلة الجاهل، فما مجادلة الجاهل إلا إحدى المجازفات الجريئة الخطيرة عادة.

ولكن حسنٌ أني قد سمعت منه ما يعرّفني أكثر على عقلية هذه الأمة، قبل أن أقدم على عملية قد تكون عواقبها دامية لا سمح الله. ولن أظهر له موافقتي ولا مخالفتي لما قال، لئلا أشعره أني غير راض عما يتحدث به، عسى أن أستدرج

مودته من جانب، و أشعره أن هناك رأيًا آخر يخالف رأيه من جانب آخر ، فلأؤجل حديثي إليه إلى مناسبة أخرى.

رددت على حماري قائلاً:

بلى إني أدرك قدراتكم الرياضية والفنية، وأكبر فيكم همتكم ودأبكم وطموحكم، وما قد أنجزتموه في تلك المجالات.

ثم اكتفيت بهذا الرد وهذا الجواب المقطوع دون أن أستدرك حديثي بـ"لكن"، حتى أدع شيئًا لجولات قادمة يكون هو قد فكر فيما قاله لي "وعساه يفعل".

هذه مداراة لا بد منها، بل إني أجدها في مواضع من حسن الخلق، لمن أراد أن يجادل شخصًا آخر، حتى ولو كان حمارًا، فالاعتبارات المركزية، ووضع السيد والمسيد، والاستعلاء أثناء الجدال هو من فساد المجادلة بالحق، ومدعاة للنفاق أحيانا والتصنع وكتم الحقائق، لذا فإنه لابد من تساوي مقام المتجادلين أثناء الجدال، حتى يحصل الحوار، وتتبادل الآراء والأفكار، إلا فيما يتعلق بتلقي العلم، وحال العالم وطالب العلم. وإن لم يكن فإن الجدال والاختلاف سيفسد كل شيء.

لقد قطع عليّ حماري طريق الجدال معه عندما قال بفخره ورضاه بحميرته وقومه، وأنه لا يرى بأسًا فيها، وبالرغم من ذلك فإني أشك في رضاه هذا، ولا أراه يقينيًا، لأني ألمس أنه ناتج عن كسل أو خوف من المعلوم والمجهول، أو ناتج من التعود على الذلة والخضوع والتسليم، وقد يكون هو رأي حماري فقط دون باقي الحمير.

على أي حال فإن الرأي الخطأ، أو وجهة النظر الخاطئة تجد دائمًا سبيلها إلى الاعتدال والتغيير إذا وجدت برهانًا عقليًا يبرهن على خطئها.

عدت أتحين الفرص للحديث إلى حماري بما أريد أن أحدثه به، وأنا في حيرة من أمري هل أعطيه مما عندي، أم آخذ مما عنده، لأتعرف على عقليته وقومه أكثر، حتى استفززته يومًا بسؤال عندما مررنا بحمير ظاهر عليهم الفقر والحال المتدني. وحيث أن هذا المشهد يتكرر علينًا كثيرًا، وجدته سبيلاً لاستثارته ومعرفة وجهة نظره.

فقلت لحماري:

ما تقول في أعداد الحمير الهائلة هذه من المساكين الذين لا يجدون قوت يومهم، والذين أراهم وتراهم بأم عينك، والذين يمثلون الأغلبية بين مئات الملايين، في حين أن القلة القليلة منكم هم الذين يملكون الأموال الطائلة المتطاولة؟

رد حماري قائلاً :

وما شأني بهم؟

كل واحد بصير بنفسه، لو جعت يومًا فلن يسأل عني أحد منهم، ولن يهمه شأني فقرت أم اغتنيت.

<u>قلت:</u>

أوَ لا يؤلمك حالهم؟

قال بقليل من الاكتراث :

بلى،، بلى

ولكن ماذا عساني فاعل لهم؟ هل تطلب مني أن أغيِّر ما بهم؟، لقد اختاروا هم أن يكونوا حميرًا فقراء، ولو أرادوا أن يغيِّروا ما بحالهم فلن يحول دون ذلك شيء أو أحدهم، لذلك فهذا جزاؤهم.

قلت لحماري:

ولكن منكم من هم حمير أغنياء.

قال:

إن هؤلاء الأغنياء حمير أذكياء، عرفوا كيف يحتالون لأنفسهم ويسيطرون على موارد المال، وهذا حظهم ونصيبهم ورزقهم الذي لا يلامون عليه.

قلت لحماري:

ولكن منكم من هم حمير أذكياء، ولكنهم فقراء

قال حماري:

لا، هؤلاء ليسوا أذكياء، الأغنياء هم الأذكياء

قلت:

ولكنكم أكثر الأمم فقرًا، بالرغم مما تمتلك بلادكم من ثروات هائلة، وأراض خصبة، وماء، وزروع

قال حماري:

لا أعرف السبب

قلت لحماري:

أو لا تود أن تعرف، فأرشدك؟

قال:

لا،، لا أود أن أعرف، فما شأني ووجع الرأس، وتكدير الخاطر، دعني أبقى حمارًا، آكل هنيئًا، وأنام مسرورًا، وأعيش مرتاح البال والخاطر، وليكن ما يكون، أنا عندي ما يكفيني من خير.

قلت:

ولو كان أحد أهلك فقيرًا؟

قال:

لو كنت من أصحاب الملايين فلربما أعينه، بشرط أن تكون علاقتنا جيدة، وعلى شرط أن يقف إلى جانبي وقت الشدائد.

قلت:

إذن لم ينفعه أن يكون من قومك، أو من أهلك.

قال:

أو لسنا يا سيدي حميرًا؟؟

أخذت أحادث نفسي:

إن هذا الحمار يوصد في وجهي الباب كل مرة، بتسليمه المطلق بحميـرته، وأنه يضفي كل عجز لديه في الفهم أو السلوك المنحرف إلى كونه حمارًا، ويعتبر بذلك أنه التمس لنفسه وقومه العذر الصائب، وكأن الحمار رفِع عنه القلم،،، بل حقًا إن الحمار مرفوع عنه التكليف كغيره من بني الحيوان، ولكن بالرغم من أن حمارنا هذا حمار مجازي، فإني أنسى ذلك.

قلت لحماري:

أوَ هذا رأيك، أم رأي كل الحمير، أن إذا أصابت أحدكم مصيبة لم يعن أحدكم أخاه الحمار؟

قال:

بل إنه رأي كل الحمير، وهو عرف عندهم، عجبًا لك،، ألا تعرف ذلك؟

قلت له :

وان فعل أحدكم خلاف ذلك، وأعان أخاه الحمار عند المصيبة؟ فما تقول في ذلك؟

قال:

يكون فعلاً حمار،، أي حمار الحمير، لأنه يكون مضيّعًا لماله ووقته وجهده، ولا يحصل على شيء مقابل ذلك، إلا بعض كلمات الإطراء والمديح التي تستدرجه أكثر إلى تضييع ماله واستغلال الحمير له.

قلت:

إذن انتم لا تؤمنون بالقيم، وبالتالي لا تسعون إلى تحقيق القيم في حياتكم وأعمالكم.

قال حماري:

آخ، لقد بدأت يا سيدي تقول كلامًا لا أفهمه، وتخوض في فلسفات، وتردد كلمات لا أفهمها ولا أعقلها،، فلا تسخر بي.

توقفت عند هذا الحد من الحديث إليه، أستخلص لنفسي بعض الفوائد عن الفكر الذي يحمله الحمير، ولقد أدركت أنهم لا يعون ماهية النهضة الصحيحة، ولا يدركون ماهية القيم، ولا يدركون حتى الألفاظ التي تعبر عنها، وكذا أدركت ماهية علاقتهم بالمال، وموقفهم من الأموال.

ولكن يا ترى ما هي مواقف الحمير حقيقة عن القيم التي تخص العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية؟ كون هذه القيم مرتبطة بتلك العلاقات، وكذا العادات والتقاليد والأعراف، تقوم دائما على أساس مبدئي، ينصبغ بهذا المبدأ الأقوام التي تحمله وتؤمن به.

فما هو يا ترى المبدأ الذي تحمله وتؤمن به الحمير، وتحدد مفاهيمها وسلوكها بحسبه؟

لقد بدأت تتكشف لي حقائق عن عالم الحمير لم أكن أعلمها، وباتت تقلقني أحوالهم أكثر من قبل، ونما عندي الشعور بالمسؤولية اتجاههم، خاصة أنهم باتوا يحكمون على فاعل الخير بالسفاهة والجهل والغفلة، ما يعني أن الفقير عندهم والمعتر لا يصيبه منهم مال فيغنيه، ولا يصيبه منهم قول معروف فيطمئنه، فيقوى بالصبر.

أما كون المال يبقى بحوزة من عنده المال، فهذا يعني أن المال أصبح دُولة بين الأغنياء منهم، فلا يتمكن منه الفقراء، سواء بالتجارة أو بالصدقة، وأنه إن تقدم

أحد من الأغنياء منهم بصدقة، فإن صدقته مقطوعة، قليلة للعيش وكثيرة للنجاة من الموت، فلا تكون قد أحيت حياة كريمة، ولا تكون قد أماتت صاحبها بسلام.

وهي التي إن دفعها الغني منهم دفعها من فائض ماله، ويتبعها بحسرة أو تمنُّن أو ندم، وهي التي إن دفعها الغني دفعها ليريح بها شيئا من أجل ضميره المعذب، فيشعر بشيء من السعادة وراحة البال، أو يدفعها لتحقيق مصلحة من ورائها.

أم فيما يتعلق بالفقر، فالحمير يعانون فيه من أمرين، أولهما الفقر نفسه، والآخر كون أنهم لا يعرفون لماذا وصل بهم الحال إلى الفقر والمرض والجوع، بالرغم من ثراء أراضيهم وكثرة زروعها وخصوبها، أما الأمر الأعظم أنهم لا يريدون أن يعرفوا سبب الفقر، لألا يتحمل أحدهم تبعة المعرفة التي ستتعبه وتقض مضجعه،وتكلفه ربما بتكاليف لا يريد أن يقوم بشيء منها.

قلت لحماري:

لقد بات يؤرقني حالكم، وما صرتم إليه، وأصاب أحيانا بشيء من الحزن والأسى كلما عدت أفكر فيما تحدثنا به سابقًا، عن أحوال الحمير وشؤونهم.

قال حماري:

عفوًا سيدي، لقد بت أنا أشك في عقلك، هل أنت الحمار أم أنا؟

قلت:

بل أنت

قال حماري:

لماذا إذن تشغل تفكيرك بأمر غيرك، وتوجع رأسك، وتقض مضجعك، وتضيع وقتك وجهدك؟

قلت لحماري:

لا تجعلني أظن في أنك حمار فعلاً

قال:

أوَ مازلت تشك؟

قلت:

أوَ تلومني؟ بل وتتهمني بالسفاهة وقلة العقل أني أخلص لك ولقومك من الحمير، وللفقراء والمحرومين والمظلومين منكم؟

قال حماري متسفهًا:

ألا تدعك من هذه الأفكار السقيمة التي لا تسمن ولا تغني من جوع؟ والتي لا تؤدي بصاحبها إلا إلى التورط مع كبار الحمير وأسيادهم وإلى السجن أو الهلاك؟ ثم من هم هؤلاء الحمير الذين تريد أن تضحي من أجلهم، وتشغل نفسك بهم، وتحزن لهم، وتشغل فكرك بحالهم، ومن هؤلاء الحمير الذين يستحقون عناءك وتضحيتك ومغامرتك؟ إننا يا سيدي أقل قدرٍ مما تتصور، ولسنا جديرين بشيء مما تفعله.

فقير، مظلوم، محروم، معدوم، مقهور، مالك ومال الناس؟ أنت لن تُصلح الكون، عم تتحدث؟ وما هذه الكلمات التي ترددها؟ وتردد ألفاظًا غريبة أخرى لم أسمع بها إلا عند المتفلسفين أو عند الذين يتحدثون عن التاريخ، أو عند الحكواتيين.

قلت لحماري:

وبماذا تريدني أن أهتم إذن؟

قال:

عليك أن تهتم بالمال، المال، المال،، المال هو كل شيء، وهو رمز القوة والعزة، إنك بالمال يا سيدي تستطيع أن تمتلك المئات من الحمير مثلي، وتستطيع عندها أن تسخرهم لكل شيء تريد، وتدوس على رقابهم حتى،، ثم سيحترمك الناس وسيقدسونك وسيبجلونك، وسيسبحون بحمدك، وتستطيع بالمال أن تعيش ملكًا بينهم.

أنت تعلم يا سيدي أنك تستطيع بالمال أن تعيش حياة كريمة، وتتزوج من النساء ما شئت، وتمتلك من السيارات والبيوت أرفهها، وتستطيع أن تدور العالم كله، وتغرف من متع الدنيا ما شئت.

أظنك يا سيدي في حاجة لأن تفكر في نفسك قليلاً، قبل أن ينتهي عمرك وتفقد كل شيء، ولن يسأل بعدها عنك أحدٌ من الحمير أو العقلاء.

قلت:

ومن قال لك أني أسعى لامتلاك رقاب الناس أو قلوبهم أو عقولهم؟ أو أني في حاجة إلى سلطان على الحمير، حتى أسعى لشرائهم أو تسخيرهم، أو شراء احترامهم أو تسبيحهم؟ إني يا حماري أحدثك عن فقرهم وسوء حالهم وانحطاطهم.
ألا تفكر ياحماري قليلاً في الله؟ أو لا تؤمن بالبعث والنشور؟ والجنة والنار؟ والحساب والعقاب؟ وأننا مسؤولون عن هذه الأمور من ضمن تكاليف كثيرة تجاه غيرنا؟

قال حماري ببرود مفرط :

بلى، بلى ولكن أؤكد لك أن عليك أن تفكر في نفسك الآن، فلن ينفعك في هذه الدنيا أحد من الناس، حميرًا كانوا أم عقلاء، فقراء كانوا أم أغنياء، وما لك ولهذا كله؟ إن الله هو الرزاق.

ساد صمت هالك بيننا وقد شعرت كأني فعلت سفورًا، أو قلت فجورًا، وشعرت أني في قفص الاتهام بدلاً من أن ينال حديثي الاحترام، فقد استخف بي وبحديثي وفعلي، واهتمامي بالحمير وفقرائهم، والمظلومين منهم، فما بالي به الآن وأنا أحدثه عن البعث والنشور، والحساب والعقاب، والجنة والنار، أظن أني قد بلغت بهذا عنده أقصى مبالغ التخلف والرجعية "كما يسمونها".

أعلم أن الحمير محتارين في أمرنا نحن العقلاء، فهم تارة ينظرون إلينا كحمير مثلهم، بل ربما أكثر منهم حميرة، وتارة يُكبرون فينا العقل والعلم إلى درجة التقديس، دون محاولة أخذ شيء أو اتباع شيء منه، أما فكرة أن يجادل أحدهم أحد العقلاء فهذا عند الحمير من أعقد الأمور، وأكرهها على نفوسهم، وأنكدها فعلاً، فلأكن إذا شاكرًا لحماري استعداده لمثل هذا الفعل ومجادلته إياي، فقد تميز

حقًا عن باقي الحمير بذكائه واستعداده للجدال، فلأعذرنه على جهله العميق، ولكن دون أن أنسى أنه ينتمي إلى عالم الحمير حقًا.

سأترك الجدال معه فترة من الزمن فيما أرغب الجدال فيه، حتى أستشعر أنه عاد يأنس حديثي، خوفًا من أن أكون قد أثقلت عليه، وإني أراه الآن ممتعضًا، فلأتقينّه ببعض الأحاديث التي يحبها، ولقد تعلمت كيف أستدرج حماري وغيره من الحمير للأحاديث، فلا أكاد أحدث أحدهم عن النساء حتى تتهلل أساريره، وتبرق عيناه، وتبرز أسنانه ضاحكة مستبشرة، مستأنسًا لي ولحديثي، حتى أكاد أكون له وليّ حميم.

وتبينت من خلال آخر حديث إليه، أن الحمير يولون المال قدرًا عظيمًا، بل إن المال والقيمة المادية تعني لهم كل شيء في الحياة.

وتبينت كذلك أنه لم يعد لديهم نظام محدد يسيّر علاقاتهم، فقد باتوا يعيشون بقانون النفعية السقيم، الذي تغيب في ظله كل القيم الطيبة ماعدا القيمة المادية، ويغيب فيه أي فكر من شأنه ينظم العلاقات المالية، كأفراد أو كجماعات أو كأمة.
هذا النظام هو الذي يسعى فيه كل فرد لإشباع غرائزه وحاجاته العضوية بأي وسيلة، وبأي طريقة كانت، دون النظر إلى مصالح غيره أو أنفسهم وأرواحهم، أو كرامتهم، ودون النظر إلى تفادي ظلم أحد من الناس أيًا كان من الأقارب أو الأباعد.

أي من دون اعتبار للقيم الروحية أو الإنسانية أو الأخلاقية، فيستأثر بالمال والسلطان منهم من أوتي من القوة والسلاح ما لم يؤت غيره.

وبذا يسود بعضهم بعضًا، فيُتداول المال بين من يتساوون في القوى، فيتبادلون المصالح فيما بينهم دون غيرهم، ويتبقى الفتات لمن لم يستطع مجاراة هؤلاء أصحاب القوة فيتسبب ذلك في تفّجر نزاعات من حين لآخر عند الحمير بين هؤلاء

وبين من لا يمتلكون القوة. ثم يظهر من حين لآخر حكماء فيهم، قد أساءتهم النزاعات على المال والسلطان، فيبذلون جهدهم لوضع نظام يتعارف عليه الناس وبه يتسالمون، فيتراضى الحمير، ثم يأتي غيرهم فينقض ما تعارف عليه من كان قبلهم، فترجع الأمور إلى نظام الغاب الحيواني، يأكل كبيرهم صغيرهم، وقويهم يأكل ضعيفهم.

ولا يزال هذا النظام يتمثل في عالم الحمير على كل المستويات الفردية والجماعية، وكذلك الدولية دون استثناء، في صورة النظام الرأسمالي، الذي تعددت وتنوعت فيه وسائل الاستغلال والاستئثار بالأموال والتمكن منها، ونزعها من أيدي مالكيها، حتى أنه لم يعد للفقراء سبيل إلى المال وسد الاحتياجات، إلا أساليب القرصنة الفردية كالسرقة أو السطو، أو الرشوة أو الاغتصاب، أو الغش والاحتيال، وما يتبع ذلك من كذب ولف ودوران، وتصيد المغفلين وتصيد الفرص في سبيل المال، أو السير في فلك المستحوذين على المال صالحين كانوا أم مجرمين.

أريد أن أخلص بهذا، إلى تبيان أثر هذه العلاقات المادية المنحرفة في العلاقات الاجتماعية، حيث أن عالم الحمير يعاني أشد المعاناة من التفكك الاجتماعي الذي سادت فيه الرابطة المصلحية فوق كل الروابط.

فالكل يلهث خلف المال بحق وبدون حق، وحيثما تكون المصلحة يُولي الفرد منهم وجهه، حتى ولو كان إلى عدو له، ويشيح الفرد منهم بوجهه عن شقيقه أو والديه أو صديقه أو صاحبته أو بنيه، إذا لم تكن عنده مصلحة يرجوها.
وتهول المصيبة عندما يعقد أحدهم مع الآخر عقدًا لأجل مصلحة ما، ثم تزول تلك المصلحة، فتنقلب تلك العلاقة إلى عداء وشر مستطير.

وعلى هذه المقاييس من العلاقات تقوم علاقات الحمير، فيؤدي ذلك إلى تحلل مودتهم كما تنحلّ الفصوص من عقدها، فتتلوث العلاقات الودية بين أفرادهم بكِير

المصلحة، فإذا أخفق تبادل المصالح بين المتوادين، أو تفاوت، أي دون مقابلة المصلحة بمصلحة تضاهيها أو تعادلها، فلا تلبث تلك المودة إلا وأن تنفك وتذهب أدراج الرياح، بل وتنقلب إلى عداء أحيانًا.

وفي تبادل الهدايا والزيارات والعيادات بين الحمير خير مثال، فإذا لم يقابل أحدهم الهدية أو الزيارة أو العيادة أو العطاء بمثله أو أحسن منه، انقلبت العلاقة بينهم من خير إلى شر، تسوده الملامة الخبيثة والظن السوء، وملافظ المنة والأذى.

حدثت حماري كثيرًا بما خلصت إليه من رأي في علاقاتهم القائمة على المصلحة، وما ينبثق منها من تفكك اجتماعي، وتحطيم لأواصر المحبة بينهم، وهدم لعلاقاتهم، وكأني به لم يفهم جلّ ما قلته له.

فرد علي مرة قائلاً :

وهل عساك تريدني أن أحسن لمن لم يحسن إليّ، فأهدي هذا وأعطي ذاك، وأعطي هذا، وأعود ذاك في مرضه، وأعين الآخرين في مصائبهم، ولا يُقابل فعلي بالمثل؟

آثرت أن أخاطبه خطابًا عقليًا فقلت له:

لو أنك لم تفكر بالفعل المقابل، والمصلحة المقابلة، فغيرك سيتعلم منك، وسيسود بينكم مستقبلاً عرفًا جديدًا يكون مآله خيرًا لكم جميعًا.

قال لي:

وهل تريدني أكون الضحية؟ والمكافح بماله ونفسه من أجل هدف لن يتحقق أبدًا؟ إنك يا سيدي لا تعرف عالم الحمير، فنحن لا نتعلم كما تتصور، نحن منشغلون بأنفسنا وشهواتنا والتفكير فيها وكفى، بل نحن سعداء ولا نجد بأسًا فيما نحن فيه،، وغير ما نجد نعتبره خيالات وأوهام لا يقوم بها إلا الحالمون.

قلت لحماري:

ولكن التفكير في النفس ليس له حدود، وإشباع شهوات النفس ليس له نهاية تحجّمه إذا لم ينتهِ الإنسان بإرادته عن السعي وراء الشهوات، وبالتالي فإن حالكم المنحرف سيزداد انحرافا باضطراد.

قال:

لو كان الأمر غير الذي وصفت يا سيدي، لما كنا حميرًا، ثم إني والحمد لله لم أشتكِ إليك شيئًا من حالي، فعندي كل شيء يكفي حاجتي من أكل وشرب ومال.

،،،، يا سيدي من راقب الحمير مات همًا،،،،

قلت لحماري والعجب يزداد عندي بزيادة الحديث معه على توالي الأيام، أنه حتى الأمثلة التي يستخدمها هو وعشيرته الحمير، يستخدمونها في غير مواضعها، قلت:

يا حماري،، أو لا تصيبك الغيرة والألم على حالكم؟ وحال المساكين منكم؟ وهم كثير، وقد يكون من بينهم من هم من أهلك وقبيلتك.

قال حماري:

أوَ هل إذا أصابتني مصيبة هل ستصيب أحدهم الغيرة أو الألم على حالي، لم أر ذلك يوما في حياتي؟

طفقت أضحك من الأصالة في التفكير المصلحي عند حماري، وشر البلية ما يضحك،، وقهقهت ضاحكًا وحماري ينظر إليّ بعينين فاقدة كل علامات التفاعل حسب ما يمليه الحدث كعادته، فهو وغيره من الحمير لا يعيشون الأحداث بقلوبهم وعقولهم، بل يعيشونها بأسماعهم وأبصارهم مجردة من ربطها بالعقل والقلب.

ولذا فإن الحمير لا يتحرك لهم ساكن إن رأوا غيرهم من الحمير أو العقلاء أصابه مصاب أو كارثة أو سمعوا بها، فلا يهمهم إلا أن يقفوا عند الحدث، وكيف حدث،

ولكن لا يهتمون لأسباب حدوث الحدث، ولا كيف يتجنب أحدهم مثله، ولا يهتم أحدهم لأي أسئلة قد توصل إلى علم أو فهم عميق.

أما تفاعلاتهم الشعورية للمصائب والكوارث، فهي موظفة توظيفًا مقننًا، ومرتبطة ارتباطًا منضبطًا مع المصالح الشخصية لكل منهم، بالقدر والكيفية التي تحافظ على هذه المصالح وتحميها.



حماري و العيد السعيد

جاء عيد الفطر السعيد وأنا ما زلت في حوار وجدال مع حماري وفي حيرة، والعيد وأيامه تُعد أجمل وأسعد الأيام عندي وعند غيري من العقلاء، ولكنني كنت في غاية الكدر والضيق، فقد كنت أتابع الأخبار، حيث هجم في هذا العيد شعب من الحمير الصفر الأقوياء بطائراتهم ودباباتهم، وبكل أنواع الأسلحة المدمرة الفتاكة على شعب حمير سمر من الضعفاء، ودكوا بلادهم وبيوتهم دكًا، وأحرقوهم أحياءً، وقد أناروا ليالي العيد في تلك البلاد بالنيران، وأظلموا نهاره بالدخان.

وإذ بحماري داخلاً في أجمل صورة وأبهى زينة وأزكى رائحة، يهنئني بالعيد السعيد.

فهنأتُه بالعيد،، وتبادلت معه هنهنات التهاني والتبريكات والسلام، وأنا أحمل في قلبي همًا وحزنًا على ما يحدث، فلم أستطع أن أخفي ما بي، فسألته متعجبًا:

ألم تسمع بعشيرتك من الحمير، كيف أن عدوهم قائم عليهم الآن قصفًا وتدميرًا وقتلاً؟ وأنا أراك وقد بدت كل أسنانك، يعلوها السرور؟.

قال لي وكأنه أخفى وراء قوله غضبًا، بالطبع ليس من عدوان العدو، ولكن غضبًا من قولي له، وانتقادي لعدم اكتراثه بما يحدث.

فقال:

أوَ لم أنهك عن الحمير؟

ما لك ولهم؟،، وما لي أنا ولهم؟

فوالله لو أصابنا ما أصابهم، لم يهتم أحد منهم بنا، ولم يكترث لحالنا

قلت لحماري:

أوَ لا تألم لحالهم؟ ولِمَا أصابهم؟ ألا تتابع أخبارهم، وأخبار ما يحدث في ديارهم ونسائهم وأبنائهم، والقتل هذا كله والتدمير؟

قال حماري:

بلى،، ولكن اليوم يوم عيد، وأحب أن أقضي العيد مسرورًا به، وفرحًا بمقدمه وأيامه.

كيف أعجب من حماري ومن حاله؟ فلو تألم حماري لحال قومه في غير عيد، لتألم لهم في العيد، وهذا أراه أولى من ذاك.

طبيعي أن طريقة تفكير حماري تتوافق تمامًا مع طريقة تفكيره هو وعشيرته بما يتناسب مع علاقاتهم المالية والاجتماعية، فليس هناك بينهم إلا مبدأ المنفعة يقيمون عليه علاقاتهم، ولا وجود إلا للقيمة المادية دون القيم الأخرى.

ولكن ما لا أتصوره هو أن يبلغ اضطراب الرابطة بينهم مبلغًا يصل إلى درجة أن يُظلم أحدهم أو يُقتل، أو يُعتدى على نسائهم أو أبنائهم أو تدمر بيوتهم وضيعهم، فلا يتحرك لهم ساكن.

وليست حادثة العيد تلك هي الوحيدة، بل أن غيرها أفظع وأشنع، وأجدر لأن تُدمِع العين دمًا، وليس دمعًا.

فقد أحرقت الديار ودُمرت الضياع، وشُرد العجائز، وذبح الشيوخ والشباب والأطفال ذبح النعاج، واغتصب النساء والفتيات جماعات، ولم أر عند الحمير ساكنًا قد تحرك، بل أن الأعياد يُستهل بها، والأفراح والأتراح تقام عندهم، يعيشون وكأن غيرهم من الحمير وأسيادهم من العقلاء ينعمون في جنات النعيم.

قلت لحماري:

وما رأيك بأقوامكم في بلاد كذا، وبلاد كذا، وبلاد كذا، وبلاد كذا؟ وقد أصابتهم مصيبة غيرهم كبلاد كذا، وبلاد كذا، وبلاد كذا.

قال:

وما شأن حمار مثلي بأقوام ليست بأقوامه؟.

قلت:

أو ليسوا منك وأنت منهم، ومن جنسهم، أو لستم أمة واحدة؟.

تنكر حماري لهم قائلاً :

لا، ليسوا مني ولست منهم.

لا أعرف لماذا تنكّر حماري لأمته، هل لأنه ربما يريد أن يكسب الجولة معي عنادًا، أو لألا أحمله مسؤولية حالهم؟ أو لأنه يعتقد يقينًا بعدم انتمائه لهم أو انتمائهم له؟

قلت لحماري:

ومن هم إذن قومك الذين تشعر أنك تنتمي إليهم وينتمون هم لك، وترفع السلاح من أجلهم غيرة وحمية؟

قال حماري:

هم الذين من أصلابهم أتيت.

قلت:

ولكن هؤلاء الذين تنتسب إليهم، قد يُعدون على أصابع اليدين فقط.

ردَّ قائلاً :

ليس لي شأن إلا بهؤلاء، كان اسمهم قومًا أو أهلاً أو عشيرة أو أي شئ آخر، أنا لا أميز بين هذه التسميات، حتى هم الذين تدعي أنهم ينتمون لي وانتمي لهم من الحمير لا يميزون، ولم أر أحدًا من الحمير الذين لا أعرفهم أعانني، مدعيًا أني انتمي إليه أو ينتمي إليّ، حتى الذين أعرفهم لا يفعلون، أو الذين انتمي إليهم نسبًا كذلك ينكرونني غالبًا أو دائمًا.

إنه ليس بيني وبين من غير من أعولهم شيئًا من تبادل الحماية أو المسؤوليات، أو مما تتحدث عنه أنت من مسائل، ولذلك فلن أألم لأحد منهم، ولن أذرف دمعة واحدة عليهم، أو على أي من أبنائهم أو نسائهم، فليس لي بهم شأن.

قلت لحماري:

ولكني رأيتكم يومًا معشر الحمير في حربٍ قد اجتمعتم متحابين متكاتفين صفًا واحدًا كالبنيان الواحد ضد أولئك الحمير من جنسكم، الذين هجموا على أرضكم فحاربتموهم ثم طردتموهم من أرضكم أذلاء، ورجعتم منتصرين ظافرين، ولقد أعجبني منظر اجتماعكم يومها، وأعجبتني بسالتكم.

قال حماري:

نعم لقد كان منظرنا يومها مدهشًا ومثيرًا، ولكني لم أحارب مع قومي يومئذ انطلاقا من خوفي على أحد منهم، أو على أهله أو أبنائه، بل لأني استعنت بهم يومها واستعانوا هم بي، لأن كل واحد منا كان خائفًا على الأرض التي نعيش عليها جميعنا وعلى أبنائه وأهله، وليس من منطلق خوف أحدنا على أهل أو أبناء غيره.

وقد بدينا يومها بخلاف باطن أمرنا يدًا واحدة، وقلبًا واحدًا حتى نتمكن من الظفر بعدونا، وقد انضممت لصفوفهم ليس حبًا في أحد منهم، بل حاربت معهم وعدت ظافرًا وأنا لم أكن لأحب أحدًا منهم قط، والحمد لله أني عدت ولم يصبني أحد بأذى ولم أمت، فكما قيل:

لو كان لي رأسان أتلفت واحدًا ،،،، ولكنه رأس إذا راح أعدما.

لقد ثبت لي حقيقة أن حماري يؤمن بتبرئه من أبناء جنسه من الحمير، لا يربطه بهم سوى المصلحة، وليس هو مسؤول إلا عن رعاية أبنائه وزوجه.

ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا حارب حماري مع الحمير هؤلاء، ولم يحارب مع الحمير من الطرف الآخر؟ وهم جميعهم من نفس الجنس؟

إنه كما قال حاربهم فقط لأنه خافهم، وخاف على أبنائه وأرضه منهم كما غلب على ظنه، فيكون إذن قد حارب من أجل حماية موطنه، ليس إلا، فحارب مع هؤلاء القوم واعتبرهم هم قومه، واعتبر من حاربهم أنهم ليسو من قومه، مع ذلك فقد أعان حماري هؤلاء القريبين على غلبة إخوانهم البعيدين، حتى يحقق مصلحته هو بذاته، ويحقق هو سيادته على ماله وأرضه ويحميهما، وهذا هو التأصيل بعينه في التفكير المصلحي.

فالرابطة التي تربطهم أو قد ربطتهم أثناء حربهم، هي تلك التي تنشأ عادة بينهم حينما يدافعون عن حماهم عند اعتداء غيرهم عليهم، شأنهم شأن جميع الحيوانات، عندما يعتدي أي حيوان آخر على حماهم، حتى ولو كان من جنسهم، فيهبّون جميعًا يقاتلونه، وإذا ما تقهقر عدوهم وكف عن قتالهم يعودون للتحاسد والتباغض والتظالم والاقتتال فيما بينهم.

فلم يجمعهم للقتال ضد غيرهم إلا رابطة الحماية والذود عن الحمى أو الوطن، والتي تُسمى الرابطة الوطنية، التي لا تغني بوجودها أحدًا، ولا تدفع بذهابها عن أصحابها ضرًا، فلا يكون بها بينهم ألفة أو محبة أو تآخي، ولا يكون شئ من هذا بعدمها.

ثم إذا ما خيّم السلام على ديارهم هب الذكران منهم يتنافسون على السلطان ويتقافزون على سيادة أبناء جنسهم القريبين منهم ثم البعيدين، ولا يلوي عاقلهم أو جاهلهم يزاحم البعض أو الكل ويقاتله، حتى يبلغ هذا الأمر شرارهم أو أكثرهم قوة أو بأسًا، أو أحكمهم على المال وأقربهم إلى السلاح والرجال، حتى تتوسع الأطماع فتتعداها من القوم إلى الأقوام المجاورة فالتي تليها، وهكذا حتى إذا ما حصلت لهم السيادة، جمعوا أقوامهم ونفخوا فيهم روح الانتماء القومي، وصناعة رابطة قومية حتى يكون بعضهم عونًا لبعض، وسندًا للوحدة القومية والتعالي على الأقوام الأخرى أمثالهم، وتثبيتًا وحماية لسيادة السادة وأصحاب السلطان.

هذا المنحى المنخفض هو منحى منشأهُ غريزة البقاء على بني الإنسان، كأفراد أو جماعات أو أمم، تصبغه بعض الضوابط الفكرية، التي تسيطر على الميول فتسوقها إلى سلوكيات معينة، وإلى كيفية مرهونة بالفكر في قضايا العلاقات والتعاملات والروابط، فإن وجدت أرتقت قليلاً وإن لم توجد زادت انخفاضا وشرًا على أهلها.

قلت لحماري:

إذن فأنت لا تربطك بالحمير الآخرين إلا الرابطة الوطنية والرابطة القومية.

قال:

ألم أقل لك يا سيدي أنا لا أفهم هذا الكلام الذي تقول، ولا أعي معنى هذه الألفاظ والمسميات، حدثني بمثل ما تُحدث به الحمير الآخرين.

قلت لحماري:

حسنٌ،، إن مشاعر الود التي تشعر بها اتجاه من ينتمون إليك وتنتمي إليهم عرقًا أو نسبًا، قلّ ذلك أو كثر، هذه المشاعر هي تلك التي تربط بعضكم ببعض بما يشبه الحبل الذي يربط بعضكم بعضًا، وبالرغم من ضعف هذا الرابط "الحبل"، لكنه يكشف عن رابطة، تسمى الرابطة القومية.

أما إن لم يكن بينك وبين أحدهم من ودّ، فقد تشعر أنت وغيرك بشيء من الترابط أو حصول شيء من الود بينكم عندما تجتمعون تحت ظروف الخوف من عدو اعتدى على بلادكم وأرضكم ومصالحكم، هذا الود هو ذلك الحبل الذي يربط بينكم، وإنه وإن كان مؤقتًا، إلا أنه رابط يسمونه بالرابطة الوطنية، هل فهمت؟

قال حماري:

نعم فهمت، ولكني لا تهمني هذه التسميات لهذه التي تسميها الروابط، ولا أرى هناك حاجة لها.

قلت:

ولكن يجب أن تهمك أسماؤها، فكيف تريد أن تتحدث بشيء وعنه وأنت لا تعرف اسمه، ولا تعرف واقعه، ولا تعرف كيف تتحدث عنه، هل تريد أن تبقى حمارًا؟؟

قال:

دعني من هذا، فأنا لا أشعر بهذا الود الذي تصفه لأي أحد من قومي.

قلت:

بل أنت تشعر، فابنك من قومك، وتشعر تجاهه بودٍّ، قد يكون أكثر من ذلك الود الذي تشعر به تجاه أبيك، والود الذي تشعر به تجاه أبيك قد يكون أكثر من ذلك الود الذي تشعر به تجاه أخيك، وما هو تجاه أخيك أكثر مما هو تجاه أبن عمك، وما هو تجاه ابن عمك أكثر مما هو تجاه ابن خالك أو خالتك. ونفس الود الذي تشعر به تجاه قريبك، أكثر مما تشعر به تجاه من ينتسبون إليك ولا تعرفهم، وهو أكثر مما تشعر به تجاه القوم الذين يسكنون في البلاد التي تسكن فيها، وقد ينعدم الود لمن هم ليسوا ببلادك حتى ولو كانوا من جنسك.

هل فهمت؟ أليس ما أقوله صحيح؟

أبدى حماري بحركة رأسه علامة دلت أنه فهم، وعساه يكون قد فهم.

ثم قال:

أو هذا طبيعي، الذي قلت عن الود؟

قلت:

نعم إنه طبيعي في إطار ما أعطينا من غريزة، وفي إطار العقل المميّز بالفطرة، ولكنه ليس في إطار الفكر الراقي.

قال حماري:

وما معنى الفكر الراقي؟ وما علاقته بالود والعلاقات؟

قلت لحماري وقد ابتهجت لاهتمامه :

الفكر الراقي هو ذلك الرأي الذي إن اتبعته نقلك من عالم الحمير إلى عالم العقلاء، ومن عالم السفهاء إلى عالم الحكماء.

وإن لذلك علاقة مهمة بالرابطة القومية، فإن ما يقابل الود عادة، هو عدم الود، أي البغض والكره قلّ أو كثر، أو الموقف بين هذا وذاك، أي لا ودّ ولا عدمه.

وانعدام الود هو ما تشعر به ابتداء بالبعيد وانتهاء بالقريب فالأقرب، حتى تجده ينعدم عند أقرب الأقرباء من قومك كابنك مثلاً، أي أنك إما أن تكره الأقوام الأخرى، أو أنك لا تكترث لأي مصيبة تصيبهم، ابتداءً بالبعيد وانتهاءً بالقريب.

وينعدم الود ويندثر عند تصادم المصالح، بل وقد ينقلب إلى عداء شرس مستحكم، وقد تتفاقم فيه نيران البغض والغل، وتحتجب عند تصادم المصالح كل ميول التسامح والحلم والرحمة.

وليس تصادم المصالح بالشيء الغريب أو النادر، بل هو من السنن التي تقترن عادة بكل الأعمال اليومية، فالخلق كلهم يسعون لتحقيق مصالحهم من خلال بعضهم أو من الطبيعة، معنى ذلك أن الود قد يُفتقد بين كل الساعين لتحقيق مصالحهم وخاصة بين من هم ليسو بأقرباء، وبين من وَجدوا المال ومن لم يجد.

فتظهر حينها كل ميول التحاسد والتباغض والتنافس في صورة فعلية، متمثلة في التنازع على المصالح، ويعتمد فيه على الغش والخداع وتطفيف الكيل، وبخس الناس بعضهم بعضًا، أو إلى الاقتتال وما يتبعه، إن تطلب الأمر ذلك.

وهكذا تكون الرابطة القومية،، فهي نعمة على أبنائك المقربين، ونقمة على باقي الناس، بالرغم من أنها غريزية، يقويها العقل عند الإنسان.

قلت لحماري متابعًا لحديثي:

وأما ما علاقة الفكر الراقي بهذا كله، فالفكر الراقي هو القادر على أن يجعل الإنسان يقفز ويتجاوز كل هذه الاعتبارات الغريزية، ونتائجها الكوارثية، فينظم

العلاقات ويرقى بنوعيتها، ثم يُوجد عرفًا يتعارف عليه الناس، فيجنبهم هذا كل المصائب الناتجة عن الروابط الوطنية والقومية، فيرقى بالناس إلى الرضى والسعادة، بعيدًا عن التنافس والتحاسد والتباغض.

قلت لحماري وكأن نشوة الفرح أخذتني أني وجدتُ من يصغي إلي من الحمير:

ها، هل فهمت الآن؟

قال حماري:

نعم ولكن لماذا أطلت الإجابة؟ لقد جعلتني أسهو عنك وأنت تتحدث، فانتقلت بتفكيري إلى عالم آخر تمامًا،، ولكن لم تقل لي ما علاقة ذلك كله بالفكر الراقي؟

قلت مندهشًا :

لقد شرحت لك ذلك للتو.

قال حماري:

آخ،، صحيح،، ولكني أجد أن المصلحة وتبادل المصالح قد تقرِّب بين الناس أكثر، أوَ لا تجد ذلك؟

أصبت بدهشة وذهول، وبشيء من الغم والغضب، وأحبطت لضياع جهدي وأنا أتحدث إليه مجتهدًا، ومنتقيًا أرقى الأفكار وما حَسُن من الألفاظ، ومجتهدًا لاستخدام أسهل الجمل وأبلغها، وها أنا أجد حماري سارحًا بتفكيره إلى ما لا أعلم، وضاربًا بي عرض الحائط.

ثم لا أجد حماري متابعًا لقولي، بل يتابعني بطرح الأسئلة التي قد لا يفهم هو إجابتها إن أجبته، ثم يعيدني لأشرح له ما قد شرحته له من قبل وأتحدث به جاهدًا، ومخلصًا لما أقوله له، فيسرح هو بتفكيره مرة أخرى، وكأني به كالذي يقوم بتشغيل موتورًا بضغطة زر واحدة، ثم يتركه يعمل، ويذهب هو لينام.

ماذا تراني فاعل معه؟

هل أدعه، وأقول له أنت حمار، ولا يجدي في الحمار حديث ذو نفع، أم أهمله كليًا؟ أم هل أجيبه ببعض الأفكار المتناثرة المقتضبة التي لا تتطلب أدنى جهد، كمن يريد التخلص من إجابات سائليه، أو كمن يرمي ببعض الفلسات باخسة القيمة لمن يستجديه أثناء نزهة في أحد الحدائق العامة؟

أم أصبر على مصيبتي معه، كون أني أخذت على نفسي عهدًا بتعليمه، وإصلاح شأنه، والرقي به من عالم الحمير إلى عالم العقلاء؟

يا له من بلاء يستوجب الصبر والتصبر والاصطبار، ويتطلب عزيمة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي قال:

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري وأصبر حتى يحكم الله في أمري

وأصبر حتى يعلم الناس أنني صبرت على شيء أمر من الصبرِ

إذن سأشحذ همتي وأسايره وأجيب عن كل ما يسألني عنه، عله يلتقط بعضًا مما أعلمه، فالذي يخرج من البحر ولم يأخذ منه شيئًا، يكون قد أصابه شيء من البلل.

قلت لحماري كاتمًا غيظًا كنت قد أوشكت أن أبديه:

نعم،، هذا حقيقي، إن المصالح أمر أساسي في حياة الناس وعلاقاتهم وهي تقرب بينهم وترابطهم ببعضهم، ولكن على قدر ما تربط بعضهم بعضًا، فهي بالقدر نفسه تفرق بينهم وتدفعهم للتعادي وللتقاتل فيما بينهم وزيادة إذا غابت المصالح أو شحت، أو إذا ما كانت المصالح هي الأساس التي تقوم به وعليه علاقاتهم.

فلا تستقيم علاقات الناس المصلحية والعلاقات الأخرى إلا إذا كانت مستندة إلى فكر راقي ينبثق منه نظامًا عادلاً ينظم العلاقة المصلحية ويصلح شأن الناس بها، فتولّد علاقاتهم المصلحية الخير وتئد الشر.

قال:

هل الفكر الراقي هو هذا النظام الذي تتحدث عنه؟

قلت:

إن النظام هو نتاج الفكر الراقي الذي أدعو إليه.

قال حماري:

وإذا لم يوجد هذا الفكر الراقي وهذا النظام، فما هي نتيجة ذلك؟ أنا أجد أن يعيش الناس بدون كل هذه الأفكار المعقدة التي تتحدث عنها، ذلك أحسن لهم، ويكونون بذلك أحرارًا.

قلت متابعًا لحديثه :

ويبقون بذلك حميرًا؟

قال حماري:

كل حمار حر في نفسه، وما يصنع بها.

وا عجبي، إني أضطر مرارًا وتكرارًا لإعادة كل ما قلته له حتى يعي، أخاف أن يكون هناك خلل في أسلوبي، أو أن يكون أسلوبي ليس فيه شيء من المكر الحسن، فيبقى هو السائل وأنا المجيب.

والعيب في هذا أن أصبح الذي يُشغل ذهنه وفكره، وهو ينعم براحة المتلقي، فإن أراد أخذ، وإن أراد رد، دون عناء وأدنى جهد.

إذن فلأتّخذ لنفسي معه أسلوبًا آخر في الحديث، فأطرح عليه تساؤلات يشتغل دماغه بها، وتجعله يفكّر ويستنتج هو بنفسه، علّه يدرك الصواب من الخطأ، والخير من الشر.

حسنٌ، سأستفزه للحديث، وسأضطره لأن يتخبط يمينًا وشمالاً في متاهات الألفاظ، حتى يُحسن تعلم بعضا منها، ويتعلم كذلك استخدامها للتعبير بها عن نفسه وعن

ما يجول في خاطره، فأكون بفعلي هذا قد أصبت ثلاثة أهداف بضربة واحدة، التفكير، الجرأة، الفهم.

ولكن لن يكون ذلك سهلاً ما لم أسخر طاقتي للصبر على غبائه وعلى تصنع الغباء وعلى رعونته، وما لم يصبر هو على الفكر الذي يتلقاه، وعساه بهذه الكيفية يكون على قدر العضلات التي يتزين بها ويتباهى.

فأجبته على سؤاله بسؤال:

وما ظنك أنت بالنتائج التي تترتب عادة على عدم وجود الفكر الراقي المنظِم لحياة الناس ومصالحهم التي تنطلق من غرائز الإنسان وحاجاته العضوية؟

طرق حماري مليًا بالسكوت وكأني ضربته بمرزبة على رأسه، وطفقت حدقتا عينيه تتردد سريعًا يمنة ويسرة كأنهما تبحثان عن ملجأ تلجأ إليه وتخرج صاحبها من مأزقه.

تلكأ حماري وتأهأه قليلاً ثم قال:

ماذا تقصد؟

قلت وأنا أمكر به:

أقصد ما قلته لك.

قال:

أو هل تعيد عليّ سؤالك؟

فأعدت عليه السؤال مرتين، ثم أعدت إليه أفهمه معنى الفكر الراقي، ومعنى غريزة البقاء ومعنى الرابطة القومية، ومعنى ارتباط المصالح بذلك كله، وقد أنصت إليّ هذه المرة جيدًا، عله يخرج من هذا المأزق الذي دفعته إليه.

والآن قد تبينت صحة ظني به أنه كان يجيبني بنعم ونعم، وأنه يفهم ما أقول، وهو في الحقيقة لم يكن يتابع حديثي، أو يتابع ولكن لا يفهم.

قلت لحماري:

ها، وما تظن أثر غياب الفكر الراقي عن الحياة؟

وبعد ساعات مجهدة أدركت أن فكرتي آخذة في النجاح، حيث بدأ حماري يفكر، ويستخدم بعض الألفاظ الصحيحة، وأعينه على البعض الآخر منها، حتى خلصت معه إلى جواب لسؤالي الذي كدت أشرع أجيبه عليه يأسًا، ومع ذلك فقد كانت النتيجة كغيرها من إجاباته السابقة، إما بعدم الفهم أو النسيان، أو الخلاص إلى جدل يُوصد به الباب في وجهي بقوله: أو لسنا حميرًا يا سيدي؟

ولكني أرى أني قد نجحت قليلاً بفكرة إشراكه بالجدال معي للوصول إلى الأفكار، بالرغم من علامات القرف والسأم والكدر والإجهاد التي لاحظتها قد انتابته.

فهو في واقعه لا يريد أن يفهم، وقد أوقعته في شرَك لم يستطع الفكاك منه.

وأظن أن هذه التجربة الأولى في حياته التي يمر بها، وبالرغم أنه قد علم أن هناك فكرًا راقيًا، به تنتظم حياة الناس، وبه يجتنبون كوارث ما تمليه عليه شهواتهم، ويستطيعون العيش به آمنين، ولكنه لا يدري أي فكر ذلك الذي عنده القدرة على هذا التنظيم الهائل لأعقد الأمور وأكثرها تعجيزًا للحكماء والمفكرين منذ نشأة البشرية حتى يومنا هذا.

وحماري لا يؤمن في الوقت ذاته بأن ذلك ممكنًا، وليس خيالاً، فهو لم يبصر بعينيه ولم يدرك يومًا زمانًا قد ساد فيه الخير والعدل والحب والعزة للناس أجمعين.

وهو لا يصدق أن هناك شيئًا اسمه الإيثار والتضحية والشهامة والكرم والشجاعة، أو عزة النفس، أو أن هناك شيئًا اسمه إغاثة الملهوف، أو نصرة الضعيف أو رعاية الفقراء أو المساكين، أو إيواء ابن السبيل، أو أن هناك إخاء أو صداقة لغير مصلحة دنيوية. بل إن حماري لم يعرف هذه المسميات أو يكاد لا يعرفها، لأنه لم يعرف قط ولم يتعلم ولم يحس واقعها، فهي عنده من ضرب الخيال والفلسفة،

بل هو لا يعرف إلا هذا الواقع الأليم،، أنه حمار،، ويؤمن بحتمية أنه سيبقى حمارًا، وأن الأنفع والأسلم له ولرقبته وبطنه وأبنائه أن يكون ويبقى حمارًا.

والحمير لا يعرفون إلا الصراع على البقاء، بكل ما أوتوا من مكر وحيلة وقوة، أو بسلاح الخداع والغش والنصب والاحتيال والنفاق والتذلل والمداهنة أو بالاغتصاب. وليس من يصل إلى غاياته بإحدى تلك الأساليب أو السبل أو بغيرها هو موضع مذمّة، بل هو في نظرهم الذكي الفطن (أو كما يسمونه: الشاطر)، وهو الجدير بالمدح والاحترام.

وحماري يؤكد أن أقوامه من الحمير في كل أرض وقطر يكرهون بعضهم البعض، وممزقون إلى شعوب وقبائل مقسمة إلى أفخاذ مختلفة، الأفخاذ منقسمون إلى عوائل وأسر، وهؤلاء الأخيرون يتنازعون فيما بينهم السيادة على بعضهم البعض على أساس العرق والنسب، حتى وصل التنازع والتنافس فيما بينهم إلى داخل الأسرة الواحدة، مفعوم بالحسد والبغضاء والشحناء.

حماري لا يعرف غير هذا الواقع، ولذلك فهو يكره الجدال في غير تلك الحقيقة، فغير تلك الحقيقة يعتبر الحديث فيها هرطقة ومبالغة وخيال لا يأتي بخير، كالذي يفني شبابه في عدّ ذرات الرمل. لذا فواقع الحمير في نظر حماري هو حالة طبيعية، ليس هناك شيء آخر في الحياة غيرها، وهي صورة طبيعية للحياة في هذا الزمان.

على الرغم من النتيجة المُرضية التي وصلت إليها مع حماري، لكني بتّ خائفًا من نفوره مني ومن الحديث إليّ مرات أخرى، فهو لا يكره التفكير وحسب، بل ليست لديه القدرة على التفكير البديهي، أي أنه لا يستطيع أن يربط المعلومات التي في ذهنه ببعضها، وبالمعلومات التي ينقلها إلى دماغه إلا بجهد جهيد، وإذا ما استطاع ربط بعضها ببعض فإنه يخفق بالخروج منها بنتيجة أو باستنتاج يستند إلى تلك المعلومات.

فمن الطبيعي مثلاً أن يستنتج العاقل التفكك الاجتماعي والأسري الذي تنتجه حتمًا سيادة الرابطة المصلحية أو الرابطة القومية أو سيادة كلاهما بين الناس، ومن الطبيعي أن يفكر العاقل في علاج هذه المصائب بوجوب إيجاد نظام ينظم حياة الناس، بدلاً من المثول إلى فوضوية الغرائز وما تنتجه من فوضوية في العلاقات، والى صراعات مخيفة.

ولكن كما بدا لي من حماري أن الحمير يفتقدون تلك البديهية في التفكير، فقد أوشك حماري بعد ذلك الجدال الطويل أن يقترح عليّ أن نعمل على كبت تلك الغرائز أو طمسها أو نزعها من المخلوقات بالحلول القمعية التي لا يعرف سواها، بدلا من أن يفكر بإيجاد الفكر الراقي المنظم لتلك الغرائز، والميول الناتجة عنها.

هذا ما استقرأته من حديثه وطريقة تفكيره، فهو لم يرقَ لكيفية من التفكير من شأنها التغيير أو حتى الإصلاح أو ما شابههما.

أما الصعوبة البالغة التي يجدها الحمير ومنهم حماري في النقاش الفكري، ناتجة من أنهم لم يعتادوا قط النقاش الفكري من قبل، لأنهم لم يتم بناءهم أصلاً بناءً فكريًا، بل لقد أحجرت عليهم كل وسائل الفكر والتفكير والإبداع الفكري، عدا أنهم ليس لديهم من الأساس أفكار تعينهم على مجاراة الأحاديث الفكرية.

حتى باتوا وقد أصبحت لديهم القناعة بالواقع وما يملي عليهم، مما أصابهم بالانهزام والجمود الفكري، فباتوا يقولون باستحالة تغيير الواقع، وغير ذلك كثير.

هذه هي مجمل القناعات التي يحملها حماري والحمير السمر، وقد باتت المصالح عندهم هي سيدة الموقف، وهي مقياس الأعمال عندهم، وهي الهدف والغاية التي تسخر لها كل الأعمال وتبذل في سبيلها كل الطاقات، وهي كل شيء في الحياة، فما لم يجلب لهم مصلحة مباشرة فلا خير فيه.



حماري و القـراءة

قلت لحماري يومًا :

ما لي أدعوك إلى القراءة فتأبى، وقد تعلمت القراءة والكتابة؟

قال حماري:

ومن قال لك إني تعلمتها حتى أقرأ، فأوجع رأسي وأضيع وقتي؟

قلت:

ولِمَ تعلمتها إذن؟

قال:

تعلمتها حتى أحصل على شهادة دراسية، أستطيع أن أؤمن بها عملاً أقتات من خلاله، وأتزوج.

قلت:

ولكن الأعمال كثيرة، التي لا تتطلب القراءة والكتابة، أو تحتاج إلى شهادة دراسية.

قال:

هذا ما جناه عليّ والدي.

قلت:

إذن كان أبوك يريدك أن تصبح عاقلاً، فدفعك إلى المدرسة.

قال:

لا، يا سيدي، لقد كان أبي حمارًا مثلي، ولم يرد إلا أن أحمل شهادة دراسية أتفاخر بها بين زملائي والناس، ويتفاخر هو بي وبها بين باقي الحمير.

قلت لحماري:

وما أدراك؟ لربما كان أبوك يريدك أن تصبح عاقلاً، حين دفعك للدراسة؟

قال:

لو كان ذلك نافعًا لتغيير الحمير إلى عقلاء لنفعت أبي شهادته الدراسية العليا، ولكنه بقي حمارًا.

فكرت في نفسي مندهشًا،، ما هذا؟ إن حماري هذا يحيرني كثيرًا، فتخلفه الفكري يصيبني بإحباط قاتل، ويدهشني من جانب آخر ببساطة استنتاجاته، هل هذا هو ما يسمونه التفكير الفطري، الذي لا يحتاج إلى أفكار كثيرة أخرى تبرزه؟

أم هذه إجابة مُعدّة على لسان حماري، زورها في نفسه، يجيب بها كل من جادله في مسألة القراءة أو الدراسة؟

قلت لحماري مشجعًا إياه لصحة فكرته وموافقتي له عليها :

إن هذا صحيح أن مجرد تخزين المعلومات في الدماغ لا يغير حال الحمير إلى عقلاء، أو العلماء إلى سياسيين، أو الفقهاء إلى قضاة، وإلا سبقنا إلى العقل والحكمة الكمبيوتر الذي أداة صنعه من الجماد، وما يحدث في المدارس والجامعات إنما هو مجرد تخزين معلومات في عقول الدارسين، لا تستخدم للعلم ولا تستخدم لتطبيقها في الواقع، يتبعها اختبار دوري لقدرة عقل الدارسين على التخزين، وقوة الاستذكار للمعلومات، فليست هي التي مغيرة سلوكًا، ولا مقررة عقيدة، أو موصلة إلى غاية نهضوية فكرية.

إني أوافقك يا حماري على حسن ما وصفت.

قال حماري:

عدت لا أفهم ما تقول، ولكن لماذا تريدني أن أقرأ، وعندي الحمد لله ما يكفيني من المال، والأكل والشرب والمسكن، وزوجة وأبناء؟ وأنا في غنى عن القراءة.

قلت لحماري وهو كما أرى لا يزال في ضلاله الفكري وتخلفه، بالرغم مما أعلمه إياه :

إن القراءة ليست مجرد عمل يتقلده العلماء، بل إن من الحمير من يقرأ أكثر من العقلاء، ولكنهم يقرأون ما يضرهم ولا ينفعهم، بل قد يعزز مقروؤهم المحافظة عليهم حميرًا، أو يزيدهم حميرة.

قال:

وكيف ذلك؟

مازال حماري يستخدم نفس الأسلوب في طرح سؤال بسيط، فأقوم فأجهد بتفصيل جواب لسؤاله، ثم يعود لا يفهم ما أقول،، ولكن هذه المرة،، فلا بأس.
أخذت أشرح لحماري تارة، وأستثيره تارة أخرى كما فعلت من قبل، فأردّ عليه أسئلته، عساه يفكر قليلاً، فينزعج حماري مرة، ويأنس بهذا الأسلوب مرة أخرى، حتى أفهمته أن القراءة ترتبط بثلاث مسائل مهمة، إذا غابت إحداها فقدت القراءة أهميتها، وفقدت متعتها، ولم تعد على صاحبها إلا بالضرر، كالذي يحك جلده بسكين حادة. أي أن القراءة سلاح ذو حدين، فإذا لم يقرأ القارئ انطلاقا من مبدأ يحمله فهو لن يُسرّ بالقراءة، لأن المبدأ هو الذي يحدد الغاية التي يسعى القارئ للوصول إليها، فلو كانت القراءة هي التي ستوصله إلى غايته، أصبح أمرها محمودًا ومطلوبًا عنده، انطلاقا من ضروريات مبدئه.

والغاية دائمًا تقرر قيمة معينة أو عدة قيم لأصحابها، فإن كانت الغاية مادية وتتحقق من خلال القراءة، كتجاوز اختبار يؤهل لوظيفة من أجل تحقيق مصدر مالي يُعتاش به، فإن القارئ سيقف عند هذا الحد من القراءة،، لأن غايته تكون قد تحققت وكفى.

أما إن كانت الغاية أكثر من مادية ومراعى فيها تحقيق قيمة أخرى كالقيمة الإنسانية، فقد يحقق بالقراءة قيمة مادية وقيمة إنسانية معًا، حين يسعى للحصول

بالقراءة والدرس على وظيفة فيها خدمة لجنس الإنسان كالتمريض أو الطب أو خدمة فيها رعاية لشؤون الناس، فيحقق بذلك كسبًا ماديًا إلى جانب العمل الإنساني (إن أخلص القيام به).

أما إن كانت الغاية تقرر أكثر من ذلك من القيم كالقيمة الأخلاقية مثلاً، يبدأ أصحاب هذه الغاية بقيمتها المادية والإنسانية والأخلاقية يراعون منهجًا معينًا في القيام بالأعمال، فتتخذ القراءة والدرس مثلاً منهجًا شبيهًا بالمنهج السابق يضاف إليه انتهاج سلوك أخلاقي يتزين بالصدق والأمانة والإخلاص، كالأعمال التي تتطلب شيئًا من التضحية والبذل الغير مكافأ بالمال أو بغيره.

أما إن كانت الغاية هي غاية راقية تقوم على أساس الإيمان بالله تعالى وبأن محمدًا عبده ورسوله، تحققت كل القيم بأفعال بيّن خيرها من شرها شرع الله تعالى، فإذا ما سعى الإنسان إلى تحقيق رضوان الله واعتبر ذلك هو الغاية العليا، حقق بذلك أربع قيم على رأسها القيمة الروحية، وهي إدراك الصلة بالله تعالى، فكانت أفعاله يتناولها الخير من كل جانب، فيحقق القيمة المادية التي يطمح كل إنسان الوصول إليها بكيفية لا يظلم فيها صغيرًا ولا كبيرًا ولا ضعيفًا، فتتحقق معها القيمة الإنسانية، وبكيفية تصنع علاقات خير بينه وبين من حوله من أهله وأقربائه وجيرانه، فتتحقق في أفعاله القيمة الأخلاقية، فيكون الإنسان حقق كل القيم في الدنيا في كل فعل يفعله.

وبالتالي فإن الذي ينطلق من مبدأ فكري كمبدأ الرأسمالية، أو الشيوعية، أو الإسلام ، ثم يسعى لتحقيق هذا المبدأ في واقع الحياة، أو يسعى على نشر مبدئه أو على المحافظة عليه، يكون عمله بذلك فكريًا سياسيًا، وهنا لا تقف قراءته عند حد ما، بل يحدد مبدأه الذي يؤمن به والغاية التي يسعى لأجلها المادة المقروءة وكمّها وكيفيتها.

أما من يقرأ بلا مبدأ ولا غاية، فإنه سيقرأ ما هب ودب من الغث والسمين والسخيف والتافه، فيتقاذف عقلَه محتوى ما يقرأ، كالأمواج التي تتقاذف سفينة هالكة، فلا تجد له بعدها رأيًا ولا فكرًا بعينه، ولا ينتمي بعدها إلى العقلاء ولا إلى حمير مثقفين ولا إلى حمير منحطين.

بالطبع لم أكن أحدث حماري بهذا الأسلوب، وبهذه الألفاظ، وبطريقة الطرح الفكري هذا، ولو فعلت، لربما رفسني رفسة أطارت بي، أو على الأقل يُصاب بصدمة يقسم أن لا يحدثني بعدها أبدًا.

أو أنه يفعل كما سجيَ عليه الحمير، بأن يذهب بين الحمير يشير إلى عبقريتي وأني أقول كلامًا عظيمًا، فيقدسني هو وغيره لمجرد أني أقول كلامًا لا يفقهونه، وأحمل فكرًا لا يعونه، حتى لو كان خاطئًا.

ولذا فإني حاولت أن أسدد وأقارب، حتى يفهم شيئًا يعينني على الصلة به فكريًا.

قلت لحماري:

وما رأيك فيما قلته لك بشأن القراءة؟

قال حماري:

في الحقيقة لم أفهم كثيرًا مما قلت، ولكني أشعر أن كل ما قلته صحيح، وأنك فيه لعلى حق، ولكننا نحن شعب الحمير لا نحب القراءة لأي غاية، ولو أحببناها لقرأنا وتعلمنا، ولكن لا تنسى أننا قوم نحب أن نكون من الشخصيات الراقية، وذوي المناصب العليا، خاصة الإدارية منها، ونحب التجارة ونتفوق فيها.

لم يفهمني حماري بعد، فهو يظن أني أدعوه للقراءة والعلم حتى يصبح من ذوي الشخصيات الحميرية الراقية كما يسميها، أو أصحاب المناصب العليا أو من التجار المتفوقين.

قلت لحماري:

دعك الآن من التفكير بالمصالح المادية والمناصب والثراء، فأنا لا أدعوك وغيرك من الحمير لأن تنتقلوا من حمير في أعمال متواضعة إلى حمير في مناصب عليا، تجارية كانت أم إدارية، أو إلى ما شابههما.

قال:

ها،، وماذا إذن؟

قلت وقد بدأت أشك في قدرتي على نقل أفكاري وأسلوبي التربوي:

أريد أن أنقل الحمير من عالمهم إلى عالم العقلاء، أفهمت؟

انطلق حماري مقهقهًا بأعلى صوته، وأوسع المكان ضحكًا وسخرية، وبعد أن هدأ وتوقف عن سخريته قال لي:

أو تظن يا سيدي أنك تستطيع ذلك، إذا ما بدأ الحمير يقرأون؟

قلت:

بالطبع لا،، ولكن القراءة تعين على ذلك بشروط.

قال:

وما تلك الشروط؟

قلت لحماري:

أولاً أن يكون ما يقرأونه صحيحًا.

وثانيًا أن يتبنوا العلم الحق الذي يتلقونه من خلال القراءة، وثالثًا أن يأخذوا على أنفسهم تغيير أنفسهم حسب ما يقرأونه ويعلمونه من فكر صحيح

ورابعًا أن ....

قاطع حديثي حماري على عجل قائلاً:

وما يدري الحمير ما هو الصحيح؟ وما هو الخطأ؟

وقفت قليلاً، قائلاً لنفسي، ها هو حماري يزل لسانُه بسؤال لا يخطر ببال كثير من العقلاء، ناهيك عن الحمير، فالصراع الفكري والسياسي في العالم كله يقف عند هذه المسألة، ووجهات النظر المختلفة في العالم (الإيديولوجيات) تتصارع على إثبات صحة وجهة نظرها أنها هي الصحيحة، فكيف للمرء أن يميز بين الفكر الصحيح من الفكر الخطأ كما أجاد حماري قولاً؟

فالحمير الصفر البلغاء الأقوياء والمتسلطين عندهم من الحنكة والفلسفة والنفير ما استطاعوا به إقناع الحمير الضعفاء والسفهاء كافة بفكر ونظام حميري، يبقيهم حميرًا آبدين، ويبقي الحليمين منهم محتارين في مسألة ما هو الصواب، وما هو الخطأ، دون أدنى قوة أو إجبار.

فكيف لي الآن أن أفهم حماري مسألة معقدة كهذه المسألة، التي عجز عن إجابتها فلاسفة كثيرون، وأجابوا عليها بإجابات ملونة ومختلفة وملتوية ومُضللة، وهي مسألة شبيهة بمسألة هل الإنسان مسيرٌ أم مخيرٌ، أو من سبق وجود الآخر في الحياة البيضة أم الدجاجة.

سأسرّ الأمر في نفسي ولأتروى قليلاً ولأعطينه ما يستطيع حمله من فكر، فلا أظنه يقصد ما سأل.

قلت لحماري:

إن عند اعتناق الإنسان مبدأ معين فهذا المبدأ......

قاطعني حماري مرة أخرى قائلاً :

وما معنى مبدأ؟

قلت لحماري وأنا أحافظ على وقاري مخفيًا غضبي، فقد أبدى لي من قبل أنه يفهم ما أقول عندما ذكرت المبدأ،، ولكن حسنٌ أنه يسألني الآن عنه وعن معناه، بدلاً من أن يستمر في مغالطة نفسه، فقلت له:

المبدأ هو ما ذكرته لك من قبل، أنه فكرٌ ينبثق عنه نظام

قال حماري:

وما معنى فكر، وما معنى نظام، وماذا يعني ينبثق ؟!.



حياة الحمير الكـريمـة

أدركت مجددًا من سؤال حماري لي أني لم أتعرف على عالم الحمير بعد بما يكفي، ولم أتعرف حقًا على مستوى التخلف الذي وصلوا إليه، ولذلك فقد أكون لا أحدثهم على قدر عقولهم، فلأكن حليمًا وصبورًا، وعليّ أن لا أنسى أن عالم الحمير في حاجة إلى بناء من نقطة الصفر التي تلي غسل ما علق منها من ضلال، وذلك حتى يستطيعوا أن يُلموا بكل ما يُقال لهم، وحتى يتبنوا ما يُحمل إليهم بشكل منتظم، وشيئًا فشيئًا، وإن لم أفعل أكون كالذي يحمّل طفلاً أثقالاً لا يطيقها إلا الرجال.

قبل أن أبدأ بإفهامه ماهية المبدأ، وضرورته اللازمة لنقل الحمير إلى عقلاء، أرى أن عليّ أن أقنعه أنه في واقعه حمار، وأقنعه أن كونه حمارًا هو أمر عظيم، خبيث ومهين.

ولن يتم لي ما أريد إذا لم أصور له واقع الحمير تصويرًا تفصيليلاً دقيقًا، ولقد أبليت في هذا، ولكن يجدر بي أن أصور له وأوضح له بنفس القدر واقع العقلاء، وصفة الحياة الراقية السعيدة التي أدعوه لها، ويسعى لإيجادها العقلاء.

لذلك يصعب أن أدعوه لأن يصبح عاقلاً، أي لحياة لا يعرف واقعها في الحقيقة، ولم يرها ولم يدر ما حقيقتها،، فهو مرتض بحياة الحمير، وبكونه حمارًا، فحماري وغيره من الحمير لم يعرفوا عالمًا غير واقعهم يدركون به ويتعرفون من خلاله حقيقة واقعهم بالمقارنة وبمشاهدة الفروقات.

ولقد وقع كثير من الحمير في شَرَك عظيم، أنهم قارنوا عالمهم بعوالم حمير آخرين، ارتقوا عنهم كثيرًا أو قليلاً، أو بمن نهضوا عنهم بمراحل عديدة في مجالات كثيرة كالإدارة والصناعة والتقنية والزراعة والعمران والنظافة، وظنوا أن غيرهم من هؤلاء الحمير الصفر قد ارتقوا بهذه إلى عقلاء، فجهزوا بذلك الظن جهازهم، وأعدوا عدتهم، ساعين إلى أن ينحوا منحى الحمير الصفر، ويغيروا عالم الحمير السمر إلى عالم كعالم الحمير الصفر، بصفتهم عقلاء، وأن حياتهم هي الحياة الراقية.

أما أولئك الحمير الذين أسموْا أنفسهم بالنهضويين، قاموا بدلاً من أن يغيروا مظاهر الحياة المدنية التي أعجبتهم من صناعة ونظام مروري جيد ونظافة إلى بلادهم (بلاد الحمير السمر)، ذهبوا فغيروا مبدأهم كاملاً، وقاموا يدْعون أنفسهم وغيرهم إلى مبدأ الحمير الصفر، ظنًا منهم أن مبدأ هؤلاء هو الذي خلق مظاهر تلك الحياة المدنية الراقية والصناعة والتقنية (التكنولوجيا) في بلاد الحمير الصفر.

ولم ينتبهوا إلى أن هذه الوسائل المادية والصور المدنية بالإمكان القيام بها أو نقلها دون الحاجة إلى ترك مبدأ أو تغييره أو تزويره أو تبني غيره.

ولما علم الحمير الصفر ذلك عنهم، وجدوا في ذلك فرصة ثمينة لترويج مبدئهم لكل الحمير الآخرين من شيوعية وديمقراطية واشتراكية، فقاموا يعرضون عليهم فنون صناعاتهم ومظاهر مدنيتهم، ويقولون لهم أنظروا ماذا صنع مبدؤنا، فقام الآخرون (الحمير السمر خاصة) منضبعين فاعتنقوا مبدأ الحمير الصفر وقاموا يفكرون بطريقته، بل وقاموا يطالبون به رغبة في مظاهر نهضة مدنية مزعومة، فخدعوهم وزادوهم خبالاً على خبالهم.

ولأعد إلى سؤال حماري عن المبدأ، ولا أظنه سيفهمني الآن لو وضحت له حقيقة المبدأ فرددت عليه سؤاله فقلت له:

ولماذا تريد أن تعرف معنى الفكر ومعنى النظام ومعنى المبدأ؟

قال حماري:

حتى أعرف كيف سأصبح من العقلاء عن طريق المبدأ، وعن طريق القراءة التي تدعيها.

قلت متلهفًا، مخفيًا سروري المنطلق من أملي:

أوَ تودّ حقًا أن تصبح من العقلاء؟

قال:

إن كان ذلك سيحقق لي من الثراء والمناصب الراقية والخير الكثير الذي تتحدث عنه فلا بأس، على الرغم من أني لا أراكم معشر العقلاء إلا أقل الناس مالاً وجاهًا وأكثرهم فلسفة.

قلت لحماري:

أو لا تدعك من التفكير المادي الصرف؟ إنه يصرفك عن خير كثير.

قال:

نعم، وأنت يا سيدي ألا تدعك من إضاعة جهدك ووقتك؟

قلت وبي شيء من الغضب :

إذن فاسمعني جيدًا، لأفهمك ماذا أريد من وراء كل ما أحدثك به.

قال:

حسنًا، هات فاسمِعني

قلت لحماري:

هناك نوعان من الحياة، حياة كريمة، وحياة دنيئة، وإن الحياة الكريمة هي التي يعيش أهلها كرماء أعزّاء، وهي حياة العدل والحق، فلا يعم الفقر والجوع فيها والعوز، أو الظلم والقهر، بل يعمّ فيها بين الناس الرخاء والعدل والرحمة، في كل

أحوال الخير والشر، وفي كل زمان ومكان، وليست للظالمين أو المجرمين فيها سيادة على أحد،، هذه الحياة وبهذه الكيفية وزيادة، هي حياة العقلاء، وهي حياة تدفع أصحابها دفعًا لنهضة تجعلهم أهلاً لأن يسودوا العالم، فيسودونه بالعلم والأدب وبالخلق الحسن، بل وحتى يسود هذا العلم والعدل والأدب والخلق الطيب والحب والعزة والحياة الكريمة العالم أجمع، ويجفوها الظلم والقتل والتدمير، هذه هي حياة العقلاء.

قال حماري:

ولأجل ذلك فقط هم عقلاء؟؟؟

قلت لحماري:

إذا كانوا قد آمنوا بتلك الأمور وعملوا لأجلها وبإرادة مخلصة، يصبحون بذلك عقلاء.

وأما الحياة الدنيئة المنخفضة، فهي الحياة التي يعيش أهلها لأنفسهم فقط، فيقدم الفرد فيهم مصالحه على كل أمر، ودون كل الناس، فيسعى لحيازة كل شيء وبأي كيفية، لا يرقب أحدهم في ذلك عزّ عزيز ولا ذلّ ذليل، ولا فقر فقير أو ظلم مظلوم، فيكثر فيهم الفقراء والمظلومون والمحرومون والمعدمون، ويصبح العزيز فيهم ذليلاً، والذليل يصبح فيهم عزيزًا، حتى ينعدم بينهم الخير والرحمة والخلق الطيب والأدب والعدل والحب.

وحياة الحمير لا يرتضيها العقلاء، ولم يرتضيها إلا الحمير فقط.

قال حماري:

آخ،، فهمت الآن لماذا يُدخل العقلاء أنوفهم فيما يعنيهم وفيما لا يعنيهم، يريدون أن ينتزعوا الأموال من أيدي الأغنياء، ويعطوها للفقراء حسب زعمهم، ولا أراهم يفعلون ذلك إلا ليصبحوا هم قبل غيرهم أصحاب السلطان والمال الكثير.

قلت لحماري:

يا حماري،، أنا لم أدعُ للخير والعدل والمساواة في الجانب المتعلق بالمال فقط، بل إني أدعو إلى أمور خير عديدة لا علاقة لها بالمال بتاتًا.

بل إن دعوتي هذه تكلفني جهدًا ومالاً عظيمًا، وتعرضني لمصاعب ومتاعب شتى.

قال:

لماذا إذن تقوم بالدعوة وهي تكلفك وتتعبك ولا تكسب من ورائها مالاً ولا جاهًا؟

قلت:

المبدأ، المبدأ هو الذي يدفعني لأن أقوم بدعوتي.

قال:

إذن فحدثني عن هذا المبدأ الذي تتحدث عنه فقد بت تحيرني، وحدثني عما يدفعك لكل هذه التضحيات لإيجاد الحياة الكريمة الخيالية التي تدعيها، والتي هي من ضرب الخيال في زمننا الحاضر.

قلت:

عن أي مبدأ تتحدث؟ مبدئي أم مبدئك؟

قال حماري:

أو هل عندي مبدأ؟

قلت:

نعم

قال:

حدثني بالله عليك عن مبدئي، فقد أفرحتني أن عندي مبدأ.

قلت لحماري:

إن ما تحدثنا عنه طويلاً، هو ذلك المبدأ الذي عندك، والذي جعلك وقومك حميرًا، وأبقاكم حميرًا، وستبقون به إذا شاء الله أبدًا حميرًا.

إن الشيء الذي تؤمنون به هو الذي يقرر سلوككم في الحياة، في علاقاتكم مع غيركم من الناس والشعوب والأمم الأخرى، وكذلك مع أبنائكم وأزواجكم وأقاربكم، أي مع البعيدين والقريبين.

وكذلك يقرر سلوككم في علاقاتكم مع أنفسكم، أي فيما يتعلق بأخلاقكم وملبسكم ومشربكم ومسكنكم، وكذلك يقرر سلوككم فيما يتعلق بعلاقتكم مع خالقكم، هذا ما أقصده بالمبدأ.

قال:

ماذا؟

الشيء الذي نؤمن به، أم سلوكنا هو المبدأ؟

قلت لحماري:

بل كلاهما، لأنهما لا ينفصلان عن بعضهما، فالإنسان لا يسلك سلوكًا بكيفية معينة، إلا وقد كانت له مفاهيم معينة عن الحياة انطلق منها بذلك السلوك، وهذه المفاهيم هي التي يقررها ذلك الشيء الذي تؤمن به، فيكون سلوكك دليل على المبدأ الذي تحمل.

قال:

هلا أفهمتني أكثر؟ !

قلت:

سأعطيك من الأمثلة ما يكفي للفهم، ولكن عليك متابعتي جيدًا:

فمثلاً عندما أراك تعود مريضًا فهذا سلوك، أي عمل تقوم به، فلو سألتك عن سبب زيارتك له، فقد تجيبني بأنك تعوده ردًا للجميل، فهو قد عادك عندما كنت مريضًا، وقد تجيبني بأن ذلك واجب شرعي، ولا تفعله إلا لإرضاء الله سبحانه وتعالى.

وقد أراك تحسن التعامل مع بعض الناس، فإن سألتك عن سبب تكلفك حسن معاملتهم، فقد تجيبني بأن هؤلاء رجال أعمال أغنياء أو وجهاء، وتبادل المصالح تتطلب تلك المعاملة، وقد تجيبني بشكل آخر فتقول أن هذا خلقٌ حسن، ومن المندوبات أو الواجب الشرعي معاملة الناس جميعًا به.

وقد أراك تقوم على مصلحة بعضهم تؤديها إليهم، كمساعدتهم في بعض أمور الدنيا، وتجد أن لهذا ضرورة لتبادل المصالح معهم، فتكون خدمة تقابلها خدمة أخرى عند الحاجة، وقد تجيبني بشكل آخر فتقول أن تلك الخدمة من المندوبات وأحيانا من الواجبات الشرعية.

وقد أراك تسلك سلوك الغش والكذب في تجارتك أو عملك، فإن سألتك عن سبب فعلك ذلك، فقد تجيبني بأن ذلك الفعل لا بد منه لتحقيق البيع والربح ولإتمام العمل على أكمل وجه، أو تكون قد اتخذت سلوك الأمانة، الذي تراه أنه واجب شرعي وخلافه إنما هو من المحرمات الشرعية حتى ولو أدى في ظنك إلى الخسارة.

وقد أراك تشرب الخمر أو تتخذ خادنات لنفسك، وإن سألتك فقد تجيبني بأن ذلك متعة جسدية رائعة. وقد تمتنع عن ذلك الفعل لأنك تجده محرمًا، وهو زنا في حقيقته بالرغم من المتعة التي تتحقق من خلاله.

وقد أراك لا تكترث لما يصيب أبناء جنسك أو دينك من مصائب، وهذا في حقيقته سلوك تسلكه، فإن سألتك عن سبب عدم اهتمامك بشأنهم، فقد تجيبني بأن هذا ليس من شأنك، بل هو من شأنهم، وقد أراك مغتمًا لما أصابهم، وعددت العدة لعونهم بما تستطيع، وهذا الأخير سلوك، إن سألتك عنه، أجبتني بأن ذلك واجب شرعي في حقهم.

فلو لاحظت جيدًا لوجدت أن هناك نوعين من الإجابات والمواقف، فكل الإجابات الأولى لكل الأمثلة تتناسب مع بعضها البعض، وتختلف مبدئيًا مع الإجابات الأخرى في كل الأمثلة التي سقتها لك.

فالإجابات الأولى تدل على مواقف صاحبها أنه يسلك سلوكًا معينًا في حياته وهدفها تحقيق المصالح، هذا السلوك يتوافق مع مفاهيم معينة قد حددها له وفرضها عليك فكرك الأساسي.

ولذا نجد أن الفكر الأساسي في السلوكيات الأولى هو المصلحة، والمفاهيم التي يقررها هذا الفكر الأساسي على صاحبه، وهي تحقيق المصالح، ومنها تحقيق أكبر نصيب من المتع الجسدية دون الاعتبار للقيمة الخلقية أو الإنسانية.

ويقرر هذا الفكر الأساسي في الوقت ذاته مفهوم سعادة خاص به، ومفهومًا للحب والبغض، ومفهومًا للنجاح والفشل، ومفاهيم الاستقامة والانحراف، والصواب والخطأ... هذه المفاهيم وغيرها كثير هي التي تقرر سلوكًا معينًا يسلكه الإنسان، كالذي مثلت لك.

فنسمي مبدأ صاحب ذلك الفكر الأساسي المصلحي، نسميه المبدأ المصلحي.

تابعت قائلاً لحماري:

وهذا المبدأ المصلحي هو الذي تحمله أنت وقومك من الحمير، والذي يبقيك أنت وقومك حميرًا، لا ترقون أبدًا لأن تكونوا من العقلاء.

قال حماري:

مبدأنا إذن نحن معشر الحمير كما ذكرت اسمه المبدأ المصلحي؟ وتسمي حياتنا بالتالي حياة دنيئة أو منحطة؟ أليس كذلك؟

قلت:

أنا لا أشتم حياتكم أو مبدأكم، ولكني أصور لكم واقعكم الحقيقي النتن المشين.

فالمبدأ المصلحي النفعي هو الذي أضحى مشرذمكم، وظالم فقيركم، وقاهر ضعيفكم، ومعز ذليلكم، ومذل عزيزكم، ومنكد عيشكم، وقاهر شعوبكم، ومسلط غيركم عليكم. وهو الذي أمسى مُقل أدبكم، ومكثر سفهكم، ومبدد علمكم، ومضل عملكم، ومطمع عدوكم فيكم.

قال حماري وكأن العزة أخذته بالإثم :

عجبًا،، أو هل عسيتم انتم العقلاء أحسن منا؟! وحياتكم أكرم من حياتنا؟

قلت:

نعم، وإن لم تقر بذلك ولم تدركه فعليك إذن أن تعاشر العقلاء، أو تصبح عاقلاً فتتعرف على شيء لم تكن تعرفه قط.

فسكت برهة ثم قلت:

أو لا تريد أن تسمع شيئًا عن مبدأ العقلاء؟ أو أنك مغضب؟

قال حماري:

لا،، لست مغضبًا، ولكني لا أتصور أن كل الحمير كما وصفت لي من الانحطاط والتخلف، فمنا الأغنياء جدًا، ومنا المثقفون جدًا، ومنا العلماء والمبتكرون، ومنا كذلك المفكرون، ولا تستطيع أن تنكر هذا.

قلت لحماري:

إنه لا يمنع بتاتًا أن يصبح أحد الحمير ذا ثراء فاحش، ولا يمنع أن يصبح مثقفًا، أو عالمًا، أو مبتكرًا، أو مفكرًا، فهذا لا يرقى به من عالم الحمير إلى عالم العقلاء، إلا إذا كان علمه أو ثقافته أو فكره يرقى به فيغير سلوكه وطريقة عيشه فيرتقي هو ويرتقي بمن حوله.

أي لن يتغير سلوكه إلا إذا غير فكره الأساسي، أي إلا إذا غير مبدأه إلى مبدأ العقلاء، فيصبح حينها عاقلاً. ولن يكون هناك مجتمع عقلاء، حتى يكون مبدأ العقلاء هو الذي يسود علاقاتهم بفكره الأساسي ونظامه.

ولن تكون هناك حياة عقلاء حتى يعيشون بحسب هذا المبدأ، فيكون فيهم المبتكر والمثقف والعالم والمفكر الذي ينتمي إلى عالم العقلاء، حينها سيكون علمه وابتكاره وفكره علمًا ناهضًا غير مؤذٍ، أو مؤدٍ إلى كوارث تفسد في الأرض، أو تزيد الأرض والمخلوقات فسادًا.

قال حماري متهكمًا، مغيظًا :

إذن حدثني عن مبدأ العقلاء هذا، فعدت لا أفهم أن يكون عالمًا كأينشتاين، أو قائدًا كهتلر، أو نابليون، أو ممثلة كمارلين مونرو أو طبيبًا كـ"فلمنج"، أو مفكرًا ككارل ماركس، أن يكون كل هؤلاء حميرًا؟؟.

قلت لحماري:

نعم سأحدثك عن العقلاء ومبدئهم.

أو رأيت الأمثلة التي قلت لك غير بعيد، فكل الإجابات الأخرى للأسئلة عن المسائل التي سقت، هي التي تأتي في إطار السلوكيات التي يسلكها العقلاء انطلاقا من المفاهيم التي يحملونها عن الحياة، والمقررة من الفكر الأساسي الذي آمنوا به.

فهم لا يغشون ولا يكذبون، ولا يسرقون، ولا يزنون حتى ولو خالف هذا السلوك منفعتهم المادية ومتعهم الجسدية.

وهم يتعاملون بالحسنى ويخدمون الناس والبيئة، ويقومون على مصالحهم، ولو كلفهم ذلك جهدًا ومالاً، ويقومون به حتى ولو لم يُعاملوا بمثله.

ثم إنهم ينتصرون للمظلوم، والمصاب، والملهوف دون مقابل مادي، ولو لم يُعاملوا بمثله.

ثم إنهم يمتنعون عن ما يضر الناس من أفعال أو ابتكارات أو إبداعات، حتى ولو كان ذلك مما سيجلب لهم من الخير والمال الشيء الكثير.

فهذه السلوكيات والتصرفات عندهم تتوافق مع المفاهيم التي قررها عليهم الفكر الأساسي الذي آمنوا به، وهو المصلحة المطلقة.

أما الفكر الأساسي الذي أحدثك عنه فهو الإيمان بالله، الخالق لهذا الكون ولجميع المخلوقات، وهو الله وحده، الإله المعبود، المتبع، المطاع، الآمر الناهي، رب كل هذا الكون والمتصرف الوحيد فيهم.

والإيمان بكل ما جاء على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وما جاء في القرآن الكريم المنزل من عند الله سبحانه وتعالى، رحمة وهداية للعالمين.

وكذلك الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث والنشور والجنة والنار.

والإيمان بما يتعلق بهذا الفكر الأساسي من مفاهيم، كالقضاء والقدر، ومفهوم الرزق، والتوكل، والهداية، والضلال.

وكذلك الإيمان بالمفاهيم المتعلقة بالأفعال، كمفهوم العبادة التي تربط الإنسان بالخالق، ومفهوم الأخلاق الحسنة والبر والعمل الصالح التي تربط الإنسان بغيره من بني الإنسان، وكذلك مفهوم الصدق والطهارة والاستقامة التي تربطه مع نفسه.

فكانت علاقة العبد مع الله تتمثل في صورة الصلاة والصيام والحج والزكاة والنوافل من الصلوات والصدقات المندوبة وغيرها، وكانت علاقة الإنسان مع غيره من بني الإنسان في جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها من الأفراد والجماعات والدول، وكذلك كانت علاقة الإنسان مع نفسه بالتخلق بالخلق الحسن، واتخاذه منهجًا في مأكله وملبسه ومشربه وطهارته وصدقه مع نفسه بكيفية معينة حددها الشارع له.

لقد حدد لنا هذا كله مفاهيم كثيرة في الحياة، كالمفاهيم عن الحب والسعادة والحرية والعزة، والمفاهيم الأخرى عن التضحية والإيثار وإغاثة الملهوف، والصدقة وبر الوالدين، وحماية المال والدم والعرض، والانتصار للمظلوم والمحروم والمعدوم، ومفاهيم أخرى كثيرة فيما يتعلق بالروابط التي تربط الإنسان بغيره من بني الإنسان.



حماري و مبدأ الإسلام

استأنفت قائلاً لحماري:

هذا الفكر الأساسي، وهذه المفاهيم المرتبطة به، وهذا النظام المُقرر من خلالهم، هو مبدأ العقلاء الذي ذكرت لك، والذي يسمى بالمبدأ الإسلامي،، هذا المبدأ هو الذي عنده القدرة على التغيير ونقل الحمير إلى عقلاء، وهو هو الذي يرقى بهم من عالم الحمير إلى عالم العقلاء.

قال حماري:

تبًا لك يا سيدي،،

لقد استدرجتني كثيرًا حتى أوقعت بي أخيرًا فيما لا أحب،، فهذا الإسلام الذي تقول، هو الذي جعلنا وقومنا حميرًا، وهو سبب تخلفنا، وتأخرنا عن شعوب العالم والحمير الصفر وغيرهم.

أوَ لا تنظر إلى الحمير الصفر وإلى نهضتهم التي وصلت القمر؟ وهم لم يعتنقوا هذا الإسلام الذي تتحدث عنه مطلقًا؟ وهم ليسوا في حاجة إليه، ولم يحتاجوا إليه البتة ليكونوا كما تسمون أنفسكم عقلاء.

أما نحن الذين اعتنقنا هذا المبدأ الذي تسميه مبدأ العقلاء، أصبحنا به حميرًا، بل إننا فوق ذلك، حميرٌ متخلفون.

مهلاً يا سيدي،، مهلاً، ألا تنظر إلى بلادنا وبلادهم، والى قوتهم وقوتنا، والى أجسادهم وأجسادنا؟

قل لي بالله عليك:

من يصنع الأسمنت الذي أصبحنا به نبني بيوتنا؟ ومن يصنع القماش الذي نكسو به أنفسنا وأبناءنا وأزواجنا وعوراتنا؟ ومن يصنع الماكينات التي تُخاط بها ملابسنا، ومن يصنع السيارات والطائرات والقاطرات التي نتنقل بها؟

بل ومن يبني لنا مدننا؟

بل من يوفر لنا غذاءنا من القمح والشعير والأرز وغيره؟ ومن بات يزرعه؟ أليس الحمير الصفر؟

بل ومن يُعدّ لنا البذور التي نقيم بها زراعاتنا؟ إن وُجدت؟

بل إنك تقرأ في ورق هم صانعوه.

ومن يستخرج لنا معادن الأرض وثرواتها؟

ومن يصنع لنا أواني وأجهزة الطبخ التي نطهي بها طعامنا؟

بل حتى أجهزة التعليم، هم الذين أنشأوا لنا قواعدها وأصولها، وهم الذين يؤسسون لنا فلسفاتها ويضبطون لنا مسارها ونظامها.

وغير ذلك كثير مما لا يُحصى.

ثم تأتيني وتقول وتتحدث لي عن الإيثار والتضحية والرابطة الأخوية في الإسلام وغير ذلك، إني لا أراك إلا تهرول مكانك، ولسانك هو الذي يطول ويقول ويفعل.

فلست أنت الذي يركب الطائرة، ولست الذي تحب أن تراها تطير.

ولكن مهلاً، قل لي يا سيدي، ألا تراني وقومي نصلي الصلوات الخمس في المسجد؟

ألا ترانا نصوم رمضان، وغير رمضان؟

ألا ترانا نحج؟ ونكثر الحج، لا نمل ولا نكل؟

وألا ترانا نقوم الليل؟

ألا ترانا نتصدق ونزكي؟

أوَ هل نفعنا ذلك كله شيئًا؟ حتى ننهض ونلحق بالأمم الأخرى؟

وبعد هذا كله تدعوني لمبدأ العقلاء كما تسميه، وأنه يجعل الحمير عقلاء.

حقيقة،، أفٍّ لك، ولما تدعو.

أدعُ يا سيدي إلى ما شئت، ولكن لا تدعُ إلى ما لا فائدة منه، فتضيع وقتك ومالك، والتفت إلى ما هو أنفع لك ولعيالك، أفٍّ لك.

إن أردت أن تدعوني لشيء، ولم يعجبك المبدأ الذي يتبعه العالم أجمع اليوم، فادعوني إلى مبدأ آخر أنفع من هذا الإسلام، ، بشرط أن يؤدي إلى نهضة تفوق نهضة الحمير الصفر والعالم أجمع.

نظرت إلى حماري مشدوهًا لما قال مغيظًا، وتركته يشعر وكأن خيبة قد أصابتني بمقولته، ولكني من جانب آخر طفقت أحادث نفسي وأدور حولها، وقد اعتلى وجهي ظلة سوداء، وكأن الدم احتجزته المآقي في سُدّته، واعتراني إحباط عظيم. لذا آثرت أن لا أجيبه حينها فلست الذي يحب الجدال وهو مُغضب، وليس حماري في حالة المجادل المستمع المنصت، بل إن موقفه اللحظة موقف المتهجم المتهكم المتعدي لحدود الأدب، وليس مقامنا هنا مقام تسامح لأستسمحه، وليس هو بمقام المتشاجر فأهدئ من غضبه.

لقد توجهت إلى سريري وبتّ غضبان أسفًا من سوء أدب حماري، وكذلك من درجة تخلف فهم الحمير السمر وسوء ظنهم بأنفسهم وبدين الإسلام، فقد يكون أي رجل منا جاهلاً. وأسفت لأمرين، أحدهما من قلة علمي بما وصلت إليه عقول الحمير السمر وأفهامُهم، وثانيها ما قد شيده الحمير السمر لأنفسهم من قصور من الأفكار الخاطئة الضالة والمضلة التي ارتضوها لأنفسهم وأقاموا عليها تعصبًا أعمى، حتى أصبحت هذه الأفكار قناعات يحملونها، قناعات تُعجز أمثالي إحداث أي تغيير فيها أو في فكرهم أو في سلوكهم أو في طريقة عيشهم، فأنى لي أن أهدم كل ما تحمله تلك الأدمغة، وأعيد بناءها بفكر صحيح.

فليس الهدم الفكري كسهولة هدم الأبنية، بل هو أشد وأعنى، حيث أنه لا بد لمن يُراد له التغيير أن يرتضي الجدال ابتداءً، ثم يرتضيه بالحكمة، أي بالبراهين العقلية، ثم يرتضي التنازل عما كان يحمله من فكر، مُحلاً مَحِلّه الحق، وفي هذا صعوبة بالغة، فتجاوز الهوى، والتغلب على عزة النفس الكاذبة، وكراهية التنازل عن العادات القديمة، والخشية من فقدان المصالح المرتبطة بالفكر القديم، كل أولئك يقفون حاجزًا دون التغيير الفكري عند الإنسان.

عدا أن إرادة التغيير تتطلب عزيمة من صاحبها، ليسخّر شيئًا من جهده ووقته، وربما شيئًا من ماله في سبيل تعلم وتبني الفكر الآخر الصحيح.

ولقد أصابني مع حماري الإحباط العظيم، حين كنت أظن جهلاً أني قد بلغت مع حماري نهاية الطريق أو نصفه، فإذا بي أجد نفسي في أوله وبدايته.

ويا ليته كان طريقًا ممهدًا، بل هو طريق وَحِل شائك تحفّه المصاعب من كل جانب، دون أن آمن جانب حماري الذي يقف موقفًا عدائيًا رافضًا تجاه ما أدعوه إليه.

فحماري يرى في الفكر الإسلامي أنه سبب تخلفه وجهله، وأن هذا الفكر هو الذي جعل منه وقومه حميرًا، بل حميرًا متخلفين.

موقف حماري هذا تجاه الفكر الإسلامي يذكرني بالذين يعادون الفكر لاسمه، وقد يكونون هم أهله، كما يُسمون مسلمين. ولا أعجب موقف هؤلاء من الفكر الإسلامي، لأنهم لا يعرفون إلا اسمه فقط، وشيئا من الأحكام الفقهية والأعمال التعبدية فيه، ويظنون أنهم يعرفون الإسلام، لأن الذي علمهم الإسلام وصوره لهم بهذه الطريقة، قد حرص أن يصنع منهم حميرًا لا تعي ولا تفقه شيئًا، فأصبح الفكر الإسلامي لهم بمثابة الراية الحمراء للثيران، التي تثور لرؤيتها، وينطلقون لمناطحتها، وقد تكون لهم كساءً وسترًا.

لذلك فإن شعب الحمير يظنون أن الإسلام هو مجرد نُطق الشهادتين أو ذكرها، ويكتمل دينهم حين القيام بالشعائر التعبدية من الصلاة والصيام والحج والصدقات

وما يتبع ذلك من نوافل تعبدية بين العبد وربه، وكفى. وأنهم إن فعلوا ذلك يكونون قد استوفوا اعتناق الدين الإسلامي واستوفوا اتّباعه كاملاً، وأنهم بهذا سيدخلون الجنة حتمًا.

ولو كان الإسلام كذلك حقًا، لصدقوا في ظنهم بأن الإسلام هو سبب تخلفهم، وأنه هو الذي صبغهم حميرًا، ولكن هيهات لهم، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وعجبًا من هذه الازدواجية في شخصية الحمير، فهم بالرغم من أنهم يظنون أن الإسلام هو الذي صبغهم حميرًا، فهم يذهبون فيصلون ويصومون ويحجون ويتصدقون.

ويذكرني حالهم هذا بحال علماء الطبيعة الفيزيائيين والكيميائيين والبيولوجيين والفلاسفة من الحمير الصفر وهم يبحثون ويدرسون ويطورون ويقرون بنظرية التطور المادي للمخلوقات (نظرية دارون) والتي تقول:

إن الكون والإنسان والحياة ليست مخلوقة لخالق، وهي التي خلقت نفسها في نهاية المطاف، ثم يذهب هؤلاء العلماء يوم الأحد إلى الكنيسة يصلون أمام الصليب، الذي هو بزعمهم إبن الله عيسى.

فأين الله وأين ما يدرسون؟!

أو أنهم ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى الخالق، وهم على علم قطعي بأن هذا الخلق والإبداع لا يمكن أن يكون وليد الصدفة أو العشوائية أو التطور الذاتي.

فأين علمهم اليقيني وأين قرارهم العقدي؟

لا عجب أنهم بقوا كلهم حميرًا.

بل يظن الحمير أن مبدأ الإسلام هو السد الذي وقف ويقف في وجه النهضة الصناعية والزراعية والعلمية والتكنولوجيا، وفي وجه التبادلات التجارية والعلاقات الدولية، وغيرهم.

بل وقد استنَّ الحمير السمر، العلماء والعباقرة والأذكياء منهم سنّة بهذا الفكر المنحرف، أنهم حملوا متاعهم وعيالهم وأزواجهم قصدًا وليس اضطهادًا، وانتقلوا تحت ترحيب عظيم من الحمير الصفر إلى بلاد الحمير الصفر، يعينونهم "أي يعينون الحمير الصفر" في نهضتهم العلمية والصناعية والعسكرية، ويحملونهم على أكتافهم "حمير على حمير".

وكثير من هؤلاء قد عاف الازدواجية الشخصية، وترك بذلك العبادات التي كان يؤدي بعضها، وقد رآها لم تكن إلا طقوسًا لا فائدة منها أمام الخضم العلمي والتطور الهائل في بلاد الحمير الصفر.

وبقيت الشهادتان "المكرمتان من كل سوء" كما هي من قبل عندهم ليست إلا كخصلة الشعر في آخر ذيل الحمار، ينشون بها عن أنفسهم أيّ ادعاء بأنهم تركوا الإسلام، كما تنش عن جسد الحمار الحشرات.

جُلت الشهادتان وتعالت عن ذلك علوًا كبيرًا.

ثم إن حماري بدلاً من أن يدرك أن نهضة الحمير الصفر لم تكن إلا نتيجة تخلف وانحطاط الحمير السمر الناتجة من فساد فكرهم، وتركهم الإسلام الحق والنهضة به. بدلاً من ذلك، رأوا أن سبب حميرتهم هي في اعتناق الإسلام، وقد ألبس عليهم الشيطان ذلك أنهم رأوا الحمير الصفر الكافرين، وقد نهضوا نهضة مذهلة، دون أن يكونوا مسلمين.

وقد أدى هذا الافتتان بنهضة الحمير الصفر إلى الانهزام الفكري والنفسي، وأصَّل حالة الجهل بالإسلام، وفقدان الثقة به، وبصلاحيته لنهضة عالمية واسعة.



حـواري مع حماري

خرجت يومًا تلى بضعة أيام من حديثي الذي كان، متجهًا إلى عملي:

فقلت لحماري:

السلام عليكم

قال حماري:

صباح الخير يا سيدي

لم أعد أعجب رده لي بصباح الخير، وأنا ألقي عليه السلام، فقد أدركت أنه لا يعي معنى الألفاظ التي أقول، والمفاهيم التي تحملها عادة الألفاظ، بل ولا يعرف الحكم الذي يرتبط بإلقاء السلام، ورده.

وكل مرة أحادثه فيها يزيدني حزنًا، ويزيد شفقتي، ويضيق صدري لحاله، لكني ما ألبث أن أعود بأمل قوي، وعزيمة، وتحدي، كردة فعل مخالفة لما يفعل أو يقول.

وبعد حديث يأنسه حماري حاولت ملاطفته به، قلت له:

مالي أراك حين حدثتك يومئذ عن الإسلام، قد أبديت لي ما أبديت، وكأني قلت لك شيئًا كريهًا يُغضب؟

قال حماري:

نعم غضبت، لأني سئمت كل حديث عن الإسلام، فأنت تريدني أن أتخذ نمطًا من العيش كريهًا.

قلت:

حاشا لله، وما ذاك؟

قال:

إن كل من يريد أن يلتزم بالإسلام أو يتبعه، عليه أن يتخذ مظهر الشيوخ ومنظرهم، وأنا لا أحب أن أتصف بمظهرهم.

ثم إن الإسلام يحرم على الإنسان كل طيبات الدنيا، حتى ليكاد أن يحرم عليه الماء والهواء.

ثم إن الانعزال عن الناس والانغلاق عنهم سمة ظاهرة عند إتباع الإسلام، وأنا لا أحب ذلك.

ثم إني لا أحب أن أكون ممن يعترضون السارح والمارح من الناس بالنصائح، والمواعظ، والتدخل في شؤونهم (كما يسمونه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

ثم إني لأرى كل من قد تديّن، قد تكلف في الحديث، ولوى لسانه باللغة العربية الفصحى، محاولاً التميّز عن الناس، وأنا لا أحب ذلك، بل أكرهه.

وإني لأرى المتدينين أقل الناس خلقًا وأسوأهم انضباطًا، وأكثرهم فوضوية، وأبطأهم حركة.

فأن أبقى حمارًا نشيطا مرحًا مستمتعًا بالحياة كغيري، خيرًا لي من ذلك كله.

قلت لحماري:

بالرغم من المظهر الذي يحلي الشيوخ بالوقار، فأنا لا أدعوك لأن تتخذ مظهرهم، ولا أدعوك لأن تتصف بأي سلوك من السلوكيات التي ذكرت، بل أدعوك إلى الإسلام، والى الفكر الراقي به.

قال:

كيف ذلك؟ أو ليست هذه هي الكيفية الحقيقية للعيش بالإسلام؟ أو ليس هذا هو الإسلام؟

قلت لحماري:

أرأيت؟ إنك تحمل تصورًا مخالفًا لصورة الإسلام وفكره الراقي؟

أوَ تظن إن اراد أحدٌ من الحمير أن يرتقي ليصبح من العقلاء، هل تظن أنه بهذه الكيفية، وبهذا المظهر وبهذه السلوكيات الممقوتة سيرقى؟ ويصبح من العقلاء؟

قال حماري:

لا، بالطبع لا يمكن.

قلت لحماري:

وهكذا فأنا لا أدعوك إلا لأن ترتقي وتصبح من العقلاء، وهذا لن يحدث إلا بالفكر الراقي، وليس بالالتزام ببعض مظاهر أحكام الإسلام، حتى ولو كان التزامًا بفقه أو باجتهاد صحيح.

قال:

كأني لم أعد أفهم من هم العقلاء، وماهية الحياة الراقية التي تقصد، حياة العقلاء !، وكأنك تتحدث عن إسلام جديد غير الذي نعرف أنا وقومي وآبائي.
أو كأنك تتحدث عن نهضة من نوع بديع لا يقدر عليها حتى الحمير الصفر!
هل معنى ذلك أنكم بالحياة التي تحكي عنها، وبالفكر الراقي الذي تدعيه أنكم ستصنعون طائرات أسرع، وقنابل أكثر تدميرًا، وصواريخ أبعد مدى؟

قلت لحماري وأنا أستبطئه :

سأجيبك إن أردت، وأفهمك إن أردت ذلك الآن، هل أنت مستعد؟

قال حماري:

لا، لا تجبني على ذلك، ولكن قل لي: أو لسنا مسلمين؟
ألا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبالبعث والنشور، والجنة والنار؟
وإن كنا كذلك، فلماذا تنعتنا بالحمير؟ أو لماذا بقينا حميرًا حسب تصنيفك؟

قلت لحماري، وقد كان سؤاله جيدًا:

أما من ناحية الإيمان ففي الحقيقة انتم لا تؤمنون بما ذكرت آنفًا، ولكنكم تصدقون فقط، وهناك فرق بين التصديق والإيمان، فالإيمان تصديق جازم معزز بأدلة عقلية ونقلية قاطعة، ويمثل أعلى درجات التصديق، كأنك ترى الشيء الذي تؤمن به ماثلاً أمام عينيك، وهو المطلوب كشرط أساسي لما يأتي بعد الإيمان.

أما التصديق "الظني" الغير قطعي، فمعناه أن المُصدق يرجّح خبرًا على خبر، مع احتمال صحة الخبر الآخر، أي مع احتمال وجود النقيض، وهذه درجة ضعيفة في الاعتقاد، قد تكون عند الكافر كذلك، ولذلك فإنها ليس لها قيمة لتغيير أو حمل الإنسان على ما يترتب على الإيمان من عمل وإتباع.

أما من يظن منكم أنه يؤمن، وبالرغم من هذا بقي حمارًا، فذلك لأنه أخذ شيئًا، وترك شيئًا آخر، مثل المشركين العرب أيام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كانوا يصدقون بوجود الله فطرة وعقلاً، وربما بملائكته وبعض كتبه، ولكنهم رفضوا اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وإتباع ما جاء به، ولذلك بقوا حميرًا، ولم ينفعهم تصديقهم بوجود الله شيئًا.

وقد سمى الله من يأخذ بدين الإسلام مفصولاً عن نظامه مشركًا، لأن من لم يأخذ بالنظام المنزل من عند الله، فسيأخذه حتمًا من عند غير الله، لأن الإنسان في حاجة لنظام يعيش به، فيكون قد أصاب في تصديقه بوجود الله، ولكنه اخطأ في اتباعه لغير الله، فيكون بالتالي قد أشرك مع الله إلهً آخر، ويبقى حمارًا لم ينفعه تصديقه شيئًا.

أما الكافر فهو الذي يجحد أمرًا ظاهرًا للعقل لا جدال فيه، وهو وجود الله سبحانه، وبالتالي فإن ضلاله أوضح وأجلى من المشرك، الذي يعاني حتمًا من ازدواجية الشخصية، وكلا الفريقين ينتمون حتمًا لعالم الحمير، هذا بكفره وهذا بشركه.

وليس المؤمن بوجود الله ومقيم الصلاة وباقي الشعائر التعبدية بناجٍ من الشرك، إذا كان متبعًا أوامر من عند غير الله متعمدًا أو مواليًا "وليس عصيانًا"، وإذا كان غير مجتنبٍ لنواهيه قصدًا "وليس عصيانًا"، وارتضى بغيرها بديلاً.

هذا هو حالكم الذي أبقاكم حميرًا، حيث لم ينفعكم إقراركم بوجود الله، وإقامة الشعائر التعبدية له شيئًا.

إلا أني قد ذكرت لك أمثلة لبعض من يؤمن بالله ويخالف شريعته، فهذا مجرد افتراض جدلي، لأن من يؤمن بالله بحق اللفظ، لا يمكن أن يرتضي غير شرع الله بديلاً.

قال حماري:

كأني بدأت أفهم ما تقول، ولكن هل هذه حقًا علاقة الكفر والشرك بكوننا حميرًا؟ ولكن مهلاً، لمَ تقول أن العالم أجمع أصبح حميرًا، ولم يعد يوجد إلا قليل من العقلاء، فلمَ تدعي ذلك؟ وقد تكون الحقيقة خلاف ذلك، أن العالم أجمع هم العقلاء، وانتم.... لا تؤاخذني فيما أقول، فما يدريني؟

قلت لحماري:

لا بأس عليك فعند كل واحد حرية الاختيار بما يدعي، والحقيقة تبقى واحدة لا تتغير برغم أنف كل حمير العالم.

لقد نُعت العقلاء بأكثر من ذلك، وبالتطرف والإرهاب الفكري.

أما ما هي علاقة الكفر والشرك بصبغة الحمير، فذلك أن الكفر والشرك يهبط بفكر الإنسان وسلوكه إلى ما دون درك الحيوان الغير ناطق، فيصبح مفتقدًا لفكرٍ يميزه عن الحيوان، في كيفية إشباع غرائزه وحاجاته العضوية، فتجد الأفراد والجماعات والدول تتخذ كل أساليب العنف والاعتداء، والظلم، والتحايل والخبث، في حق غيرها، وبكل فوضوية ووقاحة، لإشباع تلك الغرائز التي لا تُشبع عند حدٍّ، ولا تنتهي عند هدف، بل الحيوانات الغير ناطقة من هذه الأفعال براء.

فيقومون ابتداءً بالاعتداء على أنفسهم، وفيما بينهم، وعلى غيرهم بلا هدى، ولا كتاب منير.

وكما نرى اليوم ما انتهى إليه العالم من هيمنة مؤسسة على أفراد، وهيمنة مؤسسة على مؤسسات، وهيمنة دولة مؤسسة على الشعوب، ثم هيمنة دولة على دول أخرى، حتى أصبح عالم الحمير الآن يهيمن ثلثه أو أقل على ثلثيه، أي أن الأرض أصبحت مشاعًا للثلث منهم على الثلثين الآخرين، هيمنة وقهر لقوي على من هو أضعف منه.

ثم انظر نتيجة ما آل إليه هذا الحال من مجاعات وفقر مدقع، وأوبئة وذل وقهر، وانعدام الحقوق، وجرائم دموية شنيعة منظمة، وتدني أحوال الناس ومعيشتهم، بدأت بالحمير الصفر أنفسهم وفيما بينهم وانتهت عند بلدان الشعوب الأخرى المضعفة من الحمير السمر والسود وغيرهم، ما جعل أمهات يبعن أبناءهن أو يرمونهم، أو يقتلونهم أحياءً.

ناهيك عن التدهور الروحي والخلقي والإنساني في كل عالم اليوم، حتى أصبح هذا الانحطاط عرفًا تتقلده الدول والشعوب والجماعات والأفراد والمؤسسات التجارية والصناعية والزراعية وغيرها في علاقاتها وتعاملاتها وقوانينها وممارساتها، وغير ذلك كثير مما يخفى ومما لا يخفى.

هل فهمت يا حماري شيئًا عن علاقة الكفر والشرك بالحمير، وتكوينهم النفسي والعقلي على هذا الأساس؟ وأثر هذا التكوين على حياة البشر والبيئة؟

هل تود أن أحكي لك عن الأمراض النفسية المهلكة لدى أغنياء الحمير بسبب الكفر أو الشرك؟

قال حماري:

لا، لا داعي، ولكن هل لما تتحدث عنه مرد من سبيل؟

قلت لحماري:

العودة مستحيلة إلا بإيجاد الحياة الراقية بالإسلام الحقيقي الذي أتحدث عنه حتى تختفي كل هذه الكوارث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية من العالم.

قال حماري:

ولكن هذا يستحيل، فأنى لك تغيير كل الحمير في العالم إلى عقلاء؟

قلت لحماري:

إنه لا يمكن لي تغييرهم إذا لم يريدوا هم تغيير أنفسهم، وقد يصعب ذلك إذا لم يقتنعوا بفساد أنظمتهم وحياتهم، ولا يتغيرون إلا عندما أوجد لهم الحياة الراقية التي فوق أرضها يعيشون فيرونها فيرتضونها فينصهرون فيها.

قال:

وكيف ستوجد لهم الحياة الراقية هذه التي تقول، حتى يعيشوا بها فيتغيروا، ولا أراك إلا فردًا واحدًا.

قلت لحماري:

عندما يُفرض عليهم النظام الذي فرضه الله وأوجبه على عباده فرضًا، في جميع جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية والإدارية والقضائية، وكذلك في كل جوانب المعاملات.

قال حماري:

أوَ بزعمك أن الإسلام سيُحدث هو والفكر الراقي الذي تتحدث عنه نهضة صناعية وتكنولوجية، فنصنع الطائرات والتلفاز وناطحات السحاب ومدنية راقية؟

إلى هنا وددت لو كان حماري قد فهم ولو نصف ما قلته له، فهو يسألني في الغالب أسئلة لا تدل على حسن متابعته وفهمه لإجاباتي، فأظنه لا يفكر في إجاباتي عندما أجيبه، ولكن يفكر فيما عليه أن يسألني عنه، فيلقي علي سؤالاً لا يتعلق بإجابتي، أو فيما أحدثه عنه في الأساس.

وأظن أني كثيرًا ما أعطي الحمير أكثر من قدرهم العقلي والفكري، عندما أحادثهم، فاستخدم ألفاظًا لا يعرفون معناها، بل ولا يعرفون مدلولاتها اللغوية أو الأدبية أو الشرعية، وقد يكون للفظة واقع عملي، ولا يدرون عنه شيئًا.

فلا أظن أن حماري يفهم معنى السياسة اللغوي، أو يعرف المفهوم المرتبط بها، والواقع العملي لها، بل وكما هو شائع بين الحمير، أن السياسة هي العالم الذي يخوض فيه رؤساء دول الواقع وملوكهم والمراسم التي يدورون في فلكها في الواقع الحالي، ويظنون أنها التدخل فيما لا يعني الإنسان، وهي الفلسفة في العلاقات الدولية وغيرها والخوض فيها بعلم أو بجهل وبغير هدف أو غاية، وما إلى آخر هذه التصورات، خروجًا عن المعنى والتصور الحقيقي للسياسة أنها رعاية الشؤون، بدءًا من رعاية شؤون الفرد لنفسه ولأبنائه، وزوجه، ورعاية شؤون من يعولهم ومصالحهم، ورعاية شؤون الأعمال المنوطة به، ورعاية شؤون الأشخاص المسؤول عنهم في دائرة عمله الوظيفي، والتجاري والإداري، وهي رعاية الدولة لشؤون الجماعات والأمم والدول والأفراد والبيئة.

فسياسة هذه الأمور أي رعاية شؤونها هي السياسة، وهذا معناها الحقيقي.

وقد تتم هذه السياسة بأي فكر، إسلامي أو غير إسلامي، وبغض النظر عن النتائج، فرجوت أن يكون حماري يدرك "رعاية الشؤون" لأفهمه معنى السياسة.

ولا أظنه فهم معنى الاقتصاد، أو السياسة الاقتصادية، والواقع الذي تتحدث عنه هذه الألفاظ، فأحدثه، ثم أسهب في حديثي، وقد أكون له كالذي يحدثه باللغة الصينية فيهز رأسه لإرضائي، أو ليعطي عن نفسه انطباعًا أن لديه من الفكر أو

الثقافة شيئًا يضاهي ما عندي أو يزيد، فأكون قد أضعت جهدي ويكون هو قد حافظ على حميرته، ولم يتعد فهم الحمير وطريقة تفكيرهم.

وأظن أن الفجوة الحاجزة بين الحمير والعقلاء قد اتسعت اتساعًا مروعًا، ما يستحيل عندها التقارب بينهم.

وهذه هي الحقيقة، فلا أجدني أتلفظ بلفظة سهلة أو صعبة، حتى يحتدّ الجدال بيني وبينه، لأنه قد ربط هذه الألفاظ بمفاهيم خاطئة، أو مخالفة لما تشير إليه تلك الألفاظ، إلا ما قد تواضع له حماري فأوقفني عند بعضها، مما لم يدرك معناه ولا يعيه، فيسألني عنها وما تدل عليه وهو مغتاظ.

ولو أن الحمير قليلون لما اكترثت لأمرهم إلا شيئًا يسيرًا، ولكنهم قد أصبحوا السواد الأعظم، بل السواد بعينه، وبقي العقلاء بينهم كالشمس أو القمر في عدده بين النجوم.

ووددت لو أن عند الحمير شيئًا من الصدق والأمانة لما يسمعون، أو لما يقولون أو يفعلون، بل قد تفشى فيهم الكذب وخيانة الأمانات فالنفاق، إلى واقع لم أعد أدرك بُعده، ولذلك تجدني أصعق في كل مرة تظهر لي فيها بعض الحقائق التي تصيب كثيرًا من العقلاء باليأس العظيم، والقنوط من تغيير حال الحمير أو حتى مجرد إصلاحه.

ولذلك فأنا أتحدث إلى حماري بكل صدق وإخلاص ينبع من قلب صادق يمليه عليّ مبدئي، وتتغشاه جوارحي ومشاعري، أكتشف فيما بعد أنه كان يحدثني ويجادلني من منطلق أني خائنٌ لوطني، أو أني انتهازي أو ضلالي، لا أدري،، أو على أقل تقدير أني في تصوره حالم أو مغفل أو شئ من هذا أو ذاك، أو أني أسعى لنيل مال أو جاه أو سلطان.

فقد فوجئت بخبر بلغني، أن حماري شُوهد في أحد المجالس يذكرني وهو يقهقه ساخرًا بي وسط حمير آخرين، لحديث قد حدثته إياه عن الحياة الراقية.

وقد عظُم فعله في عيني لهول ما صدمت به، ليس لحسرة على نفسي؛ ولكن لعجبي أن يُقابَل إخلاصٌ وصدقٌ مني بسخرية واستهزاء؟

لربما يدل على فشلي في أسلوبي أو طريقتي في توصيل رسالتي إليه؟ أو لقلة احترام العلم والعلماء؟

أنا لم أجبر أحدًا في الحقيقة على فهم أو تبني ما أقدمه وأجادل فيه، بل فتحت لحماري كل أبواب الجدال والسؤال، ومواجهة الحجة بالحجة، ولو كنت قد أجبرته على أمر لأعطيته الحق فيما فعل بتسفيه آرائي عند غيري.

ولكن بالرغم من هذا فأنا عند عهدي لنفسي أن لا أمل ولا أكلّ، وعند عهدي لتغيير حماري هذا على الأقل لعاقل سوي، وسأركب مطية العناد إلى ما شاء الله، وسأرى إلى ما ستصير إليه الأمور، وسأتظاهر بأن لم يكن هناك شيء سمعته أو كرهته.

لقد أدركت أن عند حماري أكثر من أذنين، فهي ثلاث أو أربع، أذن منصتة، وأذن أخرى جافية، وأذن ثالثة تسخر مما تسمعه، وأذن رابعة تحرف ما يُقال لها فتزوره.

فأجده قد فهم ما أحدثه به، أو أكثر من ذلك قليلاً. وأجده أحيانا أخرى ينافقني، وأحيانا أخرى يُظهر تكذيبه بكل جرأة، تتناقض مع نفاقه ومجاملته.

وأحيانا أخرى أجده يجادلني، بل ويكثر جدالي مما يوحي لي عن صدق عزيمةٍ واهتمام يبعث فيّ الأمل بمواصلة العمل والسير معه لغايتي، وعلى الرغم من ذلك ينتابني الخوف من أن أكون واهمًا، ولكن يحدوني الأمل دائمًا فأتلمّس له مبررات واهية لما أراه، عسى أن أكون مخطئًا في شعوري، فأكذب نفسي راجيًا أن لا

يكون حسن ظني به وبوعيه وقدرته الذهنية من هذه المبررات الواهية التي تُخفي عني كثيرًا من كذبه ونفاقه، وخيانته لنفسه وللعلم الذي أعلّمه إياه.

ويا ليت حماري وغيره من الحمير يخلصون لأنفسهم ولو قليلاً، فهم يتعلمون الحق، ويدرسون كثيرًا منه، ويقرّون به، ولكن دون أن يكون عندهم أدنى استعداد لتغيير أنفسهم حسبما يمليه عليهم هذا الحق.

وفي الحقيقة أن الحمير لا يجهدون أنفسهم بالبحث عن الحق أو تعلمه، فالمصالح الشخصية هي الإله الذي يعبدونه، وهي الإله الذي تدور حوله أفكارهم وأفعالهم. والخوف الخوف إن كان الحق يطلب من أحدهم تأجيل أو تعطيل أو التنازل عن مصلحة من هذه المصالح، أو التضحية بشيء من الوقت، أو الجهد في سبيله.

أما عن الشهوات بين الحمير بأنواعها ومنها الجنسية، وإتّباعها وتتبعها بغير هدى ولا كتاب منير، فحدث ولا حرج، وهم يغوصون فيها غوصًا، وهي تضل كثير منهم عن اتباع الحق، وتتبعه، حتى لو عرفوه، أو أقروا به.

ومع ذلك كله يسألني حماري مستنكرًا عن موضع التخلف والانحطاط الذي أدعيه في حياة الحمير، ويستنكر دعوتي حاجة الحمير إلى فكر وحياة راقيتين، ولا أدري ما يكون بعد كل هذه الفوضوية السائدة في العالم في كل جوانب الحياة؟ ألا يبصرونها؟.



الحمير و التكنولوجيا

لأعود إلى سؤال حماري الذي قد حيّر كل الحمير، وكثيرًا من العقلاء، عالمهم وجاهلهم، عن ماهية علاقة الفكر الراقي (الإسلام) بالصناعة والتكنولوجيا، والمدنية الراقية، أي الكيفية التي يقوم بها الإسلام لخدمة العلم والتكنولوجيا، وماهية الرابط الذي يربط الإسلام بالعلم التقني والصناعي والنهضة الصناعية والزراعية والحيوانية وغيرها.

ولا أظن أن حماري قد طرح أسئلته عليّ في هذا الصدد إلا تعجيزًا لي، وشكًا منه بالطبع في أن الإسلام قادر على نهضة مدنية أو صناعية كالتي رآها ورأى آثارها هو وقومُه عند الحمير الصفر، انطلاقا من الظن أن الإسلام يقتصر على الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وصدقة، ودعوة إلى الأخلاق الحميدة، وعلوم أصول العقيدة والفقه وكفى.

حقًا وصدقا، لو كان الإسلام كذلك لصدق حماري، ولمَا حمل الإسلام فكرًا راقيًا، ولما استطاع أن يكوّن أمة أو حضارة، ولمَا تجاوزت أفكاره بدْو الجزيرة العربية أو حاضرها، ولمَا استطاع أن يصنع نهضة علمية أو صناعية أو عمرانية فاقت كل النهضات العالمية في التاريخ، ولمَا كانت النهضة الإسلامية هي القاعدة التي بَنَت عليها جميع أصناف النهضات العالمية الحالية علمها، واستندت إليها.

فأقول لحماري، وغيره من الحمير:

إن المبادئ جميعهًا بفكرها ونظامها، ليست لها شأن مباشر بالنهضة الصناعية والتكنولوجية، من ناحية ابتكارها والعمل بها وتطويرها، فالمبادئ العالمية كلها لا تعطي علمًا تقنيًا ومنهجًا صناعيًا أو زراعيًا أو غيره.

فلو كانت إحدى البلدان تحمل المبدأ الإسلامي في إطار دولة، أو تحمل غيره من المبادئ الغير إسلامية كالرأسمالية أو الشيوعية، فهذا لن يغيّر من أمر نهضتها الصناعية والعلمية والتكنولوجية شيئًا، إذا ما تيسر لها نهضة صناعية لم يقف في وجهها أو ضدها أحد السياسيين، أو لم يمنعها عنها إحدى الدول القوية.

إن القيام بالنهضة الصناعية أو القعود عنها أو منعها هو قرار دوْلي (أي من الدولة) وإرادة شعبية، والنهضة الصناعية والزراعية والتقنية هي في أصلها سلوك طبيعي، كان هذا قرارًا مبدئيًا (أي منطلق من المبدأ)، أو كان قرارًا سياسيًا ليس له علاقة بالمبدأ، فهو ليس مقيدًا أو مشروطًا بمبدأ معين، بالرغم من أن هذا المبدأ أو ذاك ينمي النهضة خيرًا من غيره من خلال عدل وقوة وحكمة نظامه، ويوجهه لطريق الخير أو طريق الشر.

فتاريخ النهضة الصناعية والتكنولوجية وصُنعُ نُواتِها، لم يكن وقفًا على شعب أحمر أو أصفر أو أسود، أو وقفًا على مبدأ دون مبدأ، بل النهضة قادر عليها كل من يريدها ويعمل من أجلها.

ويجب الوقوف على حقيقة أن النهضة الصناعية إنما هي عجلة بدأ في تصميمها، وتركيب أجزائها، وصنع نواتها، وابتكر دائرتها الإنسان بدءا بسيدنا آدم عليه السلام، ثم مرت على شعوب كثيرة من أبنائه وأحفاده من بعده، حمير وعقلاء، حيث خضعت للتطوير، وهي تمر بحضارات عديدة، من الساسانيين والآشوريين والصينيين والفراعنة والفرس والرومان والأكراد والإغريق وقوم عاد وثمود، وغيرهم كثير. حتى تناولت عجلة التطور هذه الحضارة الإسلامية لاثني عشر قرنًا من الزمان، فدفعتها دفعة جبارة، غيرت بها الموازين، ووجهتها توجيهًا نافعًا للناس أجمعين والبيئة.

أما عن تطوير الصناعة، فلم يكن قد طوّرها إلا أفراد ذوو فكر رياضي وصناعي وكيميائي وفيزيائي ليس له علاقة بالمبادئ، أعانهم أو كلفهم بها أو سعى على

جمعهم لتطويرها خلفاء أو ولاة أو ملوك أو أمراء، حتى دار الزمان، وجاء الحمير الصفر وقاموا بانتزاع معظم علوم تلك الصناعات والتقنيات، وعلمها وأسرارها من أيدي المسلمين انتزاعًا، بالاحتلال والسرقة والنهب والسلب وانتزاع المخطوطات وموروث المسلمين العلمي والثقافي والفكري والأدبي والتربوي من كافة أرجاء البلاد ودُورها ومكتباتها والمساجد والجامعات، ثم أخذ الحمير الصفر في سبيل تطوير هذه النهضة والحفاظ عليها الأخذ بكل أسباب القوة والقتل والنهب والسلب والاغتصاب لثروات المسلمين وثروات البلدان الأخرى، حتى وصلت النهضة الصناعية عند الحمير الصفر وتطورها إلى ما وصلت إليه يومنا هذا في بلدانهم حصريًا، وما زال هذا المسلسل قائما كمن قبل.

وأثناء غياب المسلمين، في وقت صراعاتهم مع المعتدين من الحمير الصفر، وما آلت إليه هزيمة دولتهم العظمى، وتحوُّل ثروات أراضي المسلمين إليهم، تفرد علماء الحمير الصفر بإدارة عجلة التطوير والنهضة الصناعية والمدنية وغيرها.

ثم لم يجد علماء المسلمين بعد هذا المآل من يعينهم ويدعمهم لأن يُكملوا مسيرة التطور الزراعي أو الصناعي الذي غرسوا شجرته، فباتوا لا يجدون أحدًا يعترف بهم أو يرغب بوجودهم، أو يقرّ بهويتهم أو بأفكارهم، ناهيك عمن حاربهم ونبذهم.

وسار منهج الاعتداءات على ثروات الحمير السمر على قدم وساق، فلم يكتف الحمير الصفر باحتلال أرض المسلمين التي لا تغيب عنها الشمس، لم يكتفوا باحتلالها واستنزاف ثرواتها وقهر شعوبها واستخدامها كقواعد عسكرية لهم ومراكز حراسة لطرق تجارتهم ونقل منهوباتهم، بل وجدوا أن هناك ثروات أخرى أصبحت عارية، وهي الثروات البشرية وعقولها وإبداعاتها وإنتاجها الفكري، فانبروا كذلك على هذه الثروات يعينهم في ذلك زعماء الحمير السمر ليهبوهم أبناءهم وعقول أبنائهم الشباب، حتى أصبح كل الإنتاج الفكري والعلمي للحمير

السمر يصب في عالم الحمير الصفر، وهكذا أصبح الإنتاج والتطور الفكري والصناعي وغيره أحادي القطب، وهكذا أصبح الحمير الصفر يهيمنون على ميزان التطور حتى يومنا هذا، ويتباهون به ويتفضلون به على غيرهم.

إن التطور الصناعي لا يتحقق عادة إلا بأمرين، أحدهما الإرادة الدوْلية والدعم السياسي، والآخر بالدعم المادي من قبل الدول أنفسها، فليس هناك أمة أو شعب كلهم صناعيون، أو كلهم علماء فيزيائيون، أو كلهم أطباء، أو كلهم هاملون أو أغبياء.

ولكن جاء حمير من أبناء وأحفاد العقلاء، وشاهدوا تلك النهضة الصناعية البارزة في بلاد الحمير الصفر، ورأوا تلك المدنية الرائعة، فانبهروا بها انبهارًا أعماهم عن التفكير السليم، وعن الربط الفكري الصحيح. فقاسوا الأمور قياس المفتون الأعمى أمام نهضة الحمير الصفر الفاتنة. فأصيبوا بشعور الانهزام أمام هذا التطور المدني، ناطحات سحاب، طائرات، صواريخ، كمبيوتر، تلفزيون، اتصالات لاسلكية، إنترنت، فحكم هؤلاء بالمجمل على الحمير الصفر وجنسهم بالخوارق، وحكموا بالمجمل على أنفسهم وجنسهم بالأغبياء العاجزين الساقطين.

وذهبوا بالظن إلى أن الحمير الصفر وفكرهم ومبادئهم وأفكارهم شيء عظيم، وما دونه من المبادئ والأفكار، كما ذهب ظنهم بالإسلام، أنه سبيل التخلف والتأخر والانحدار.

وجهل هؤلاء أن الإسلام له علاقة أعمق وأقوم من علاقة المبادئ الأخرى بالتطور والنهضة الصناعية، لأن الإسلام من خلال نظامه قد جعل السعي والعمل في سبيل التطور الصناعي والتكنولوجيا وغيرهما من مباحث العلم المختلفة، جعل ذلك واجبًا شرعيًا، تأثم الدولة على تركه أو عدم القيام به، ويأثم الناس إذا ما أهملوا محاسبة الدولة عليه، ولذلك فإن من بنود الصرف في بيت المال ما هو مخصص بشكل أساسي للبحوث والصناعة والتطور الصناعي وغيره، والعلوم

التكنولوجية المختلفة، ولكل العلماء القائمين والقادرين عليها وطلبة العلم بإكرامهم وإنزالهم منزلة رفيعة.

وأقول،، إن علاقة الإسلام بالتطور الصناعي والتكنولوجي أعمق وأقوم، وذلك لأن هذا التطور لو قُدّر له أن يسير بالفكر الإسلامي في القرنين أو الثلاثة قرون الأخيرة، لما اتخذ "التطور" تلك الصورة البشعة المدمرة للإنسان والبيئة التي حصلت على أيدي الحمير الصفر.

وذلك أن الإسلام لا يجيز من خلال نظامه وأحكامه تطوير صناعات أو تكنولوجيا على وجه يُحدث ضررًا بالناس أو بالحيوان أو بالبيئة، بأي صورة من الصور، أو بكيفية من الكيفيات.

وأن الإسلام لم يُجز للمسلمين أن يجعلوا نهضتهم قائمة على النهب والاغتصاب والاعتداء على خيرات وثروات البلدان الأخرى التي يفتحونها، في سبيل نهضتهم أنفسهم ولمركز خلافتهم كالذي فعله وما زال يفعله الحمير الصفر في بلدان العالم الثالث التي احتلوها واغتصبوا ونهبوا ثرواتها، واستخدموها لصناعاتهم وزراعاتهم وتجاراتهم وغيرها.

وذلك لأن الفكر الإسلامي من خلال نظامه لم يُجز أن يستأثر المسلمون في مركز دولة خلافتهم بالتطور والنهضة والعلوم دون البلدان الأخرى التي دخلت في دار الإسلام، حتى ولو كان جُلّ أهلها من غير المسلمين، فيحرمونهم من النهضة والانتفاع بها.

ثانيًا: إنه ليس من نظام الإسلام أن يُبقي المسلمون البلادَ التي يفتحونها متخلفة، أو يمنعوا علماءها أو أهلها من تطوير صناعاتهم وعلومهم، أو يمنعونهم من الإنتاج، كما يفعل الحمير الصفر، وذلك لغاية استعباد شعوب البلدان المحتلة، ولتكون بلدانهم سوقًا استهلاكية للإنتاج القائم في مصانع المحتل ومعامله

ومزارعه، فتصاب تلك البلدان بالفقر والتخلف والمجاعات، مقابل التطور والنهضة والرفاهية والازدهار الذي يحصل في بلدان المحتل.

ثالثًا: لو كان المسلمون هم القائمون على اكتشاف الذرة وانشطارها، لامتنعوا من تطوير أسلحة أو قنابل تقوم على أساس هذه الحقيقة العلمية، فالإسلام يوجب حماية الأبرياء والبيئة والحيوان في الحرب، ويحرم حرق الأرض والزروع، ويحرّم تدمير المساكن وإتلاف أي شيء ينفع الناس، سواء في أرض المسلمين أو في أرض العدو، فلذلك يعتبر هذا السلاح والأسلحة المشابهة له من المحرم صناعتها وتطويرها واستخدامها في منهج الإسلام.

ولو كان المسلمون هم القائمون على تطوير المصانع والآلات والسيارات والطائرات، لما سلموا رقبتها للرأسماليين ليعيثوا بالاقتصاد الفساد، ولما كانوا صنعوها أو طوروها بكيفية تسبب تدمير البيئة أو تسبب العبث بمنتوجها الطبيعي، أو تسبب تلويث الهواء والبحار والأنهار، أو تسبب إفسادًا للأرض، أو إتلافًا للمزروعات أو إيذاء للمخلوقات، ولما أطلقوا عنان الاحتكارات الرأسمالية، فالإسلام لا يجيز الاحتكار لأحد من الناس.

ولو أن المسلمين هم الذين قاموا على إنتاج المستهلكات وصناعتها بما يمليه عليهم المبدأ الإسلامي، لاختلف شكل المصنوعات ومضمونها وجودتها وكميتها بما يتوافق مع حاجة الناس وتغطية حاجاتهم الأساسية، وليس كما يفعله الحمير الرأسماليون اليوم بصنع وإنتاج كل رديء، أو قصير العمر، وما يفيض أضعافًا عن حاجة الناس، حتى يتكرر شراؤه أكثر من مرة لغرض استنزاف كل درهم أو دينار من أيدي الناس. أو كما يقوم الحمير الصفر من ابتكار كل جديد مما لا يحتاجه الناس وإغراؤهم بشرائه، ويقومون بتطوير المصنوعات تدريجيًا ليجعلوا الناس تلاحق كل جديد، بعد دعمه بالإعلانات التجارية، فيتكرر شراء الشيء الواحد مرات ومرات، فيضر البيئة ويضر بالناس والاقتصاد.

الإسلام لا يجيز لأحد أن يبخس الناسَ أشياءهم، أو أن يطفف الكيل لهم، أو أن يغشهم ليأكل أموالهم بالباطل، مثل ما يحصل كذلك من خلال إنشاء شركات من شأنها نهب أموال الناس بالترفيه والمغامرة كنوادي القمار وشركات الأسهم الرأسمالية.

ولو أن المسلمين هم الذين قاموا على المنتوجات الاستهلاكية، وتقرير الأسعار في السوق العالمية والمحلية، لما جعلوها كما يفعل الحمير الصفر، تضاهي أسعار إنتاجها عشرات الأضعاف أو أقل أو أكثر، بل إن سعر السلعة في الإسلام مقرر بأن لا يتجاوز الربح فيها بأكثر من نصف تكلفة إنتاجها، أي بضوابط لا تدع مجالاً للظلم أو الغبن.

وكذلك لا يُجيز الإسلام احتكار صناعة أو تجارة أو زراعة لأحد من الناس أو للدولة، أو تُعطي الدولة أحقية تصدير أو استيراد أو إنتاج شيء لأحدهم دون باقي الناس، أو تعطي الحرية للتجار وقت حدوث المجاعات أو النوازل للتحكم في الأسعار وزيادتها.

وكذلك يحرم الإسلام كتم العلم في كافة جوانب العمل والإنتاج والتقنية، ويحرم كتم أسرار الزراعة والصناعة، فلا يكون العلم حكرًا على أحد، بل مشاع لكل الناس.

فلا يكون بذلك لأحد من الناس أو التجار أو أصحاب الأموال قوة وسلطان على غيرهم من الصناع أو الزراع أو التجار، فلا يهلك الضعيف وتزداد قوة القوي، ويفقر الفقير ويزداد غنى الغني.

ولو كان الإسلام سائدًا لأخذ التطور الصناعي والزراعي والإنتاج وجهًا زاهيًا مزدهرًا، يملكه جميع الناس ويقدرون عليه، وليس حكرًا على مؤسسات رأسمالية، وحكرًا على رأسماليين مستبدين، يمتلك أفرد منهم من الأموال ما يمتلكه شعب كامل.

ولو كان القائم على بناء المدنية الحديثة هم المسلمون بمبدئهم الإسلامي، وهم القائمون على بناء المدن، لأقاموها بكيفية تحتوي كل الناس سواء بسواء، وليست هناك أحياء للفقراء وأخرى للأغنياء، وليس بها تطاول في البنيان، وكشف للعورات، ولبنوها بما تخدم أحكام الإسلام الاجتماعية والترابط الاجتماعي المطلوب في نظام الإسلام، وعلى هذه المقاييس يتم بناء المدن، وليس عشوائيا أو بما يخدم المؤسسات التجارية والحركة من اجل التجارة واستنزاف الأموال.

فالإسلام يبيح تطور المدنية، بل ويعين عليها، ولكن في إطار عدم حدوث الضرر، أو انتقاص الحقوق، بل إن تطويرها واجب شرعي، إذا كان ذلك يخدم مصلحة كل الناس، غنيهم وفقيرهم على حد السواء، أو إذا ما كان في تخلفها ضرر على أحد.

أما ما يفعله الحمير الصفر من أصحاب رؤوس الأموال والسياسيين فإنهم يدفعون عجلة بناء المدن في بلدانهم دفعًا من غير حاجة لها، ومن دون اعتبار الأضرار على البيئة والتكوين الاجتماعي، ومن دون اعتبار للحياة الاجتماعية والأفكار التي يهواها الناس أو يرغبون العيش بها اجتماعيا وخلقيا؛ المهم في الأمر هو دفع عجلة بناء المدن في سبيل تشغيل الماكينة الصناعية الغربية الإنشائية، وتشغيل شركات الحمير الصفر والمؤسسات التي تتبعها، الخدمية والتموينية، والتأثيثية والأمنية، وشبكات الاتصالات والمواصلات العامة، وإمدادات المياه وتصريفها، وإمدادات الكهرباء وتوفير معداتها، وغيرها كثير مما يخدم هذا الشأن من البنية التحتية وما دونها.

وما يفعله أولئك الرأسماليون من زعماء الحمير الصفر، أصحاب الشركات الإنشائية في بلدانهم، يقومون على فعل مثله في بلدان الحمير السمر والسود وغيرهم مِمَن يسمونهم العالم الثالث. حيث أنهم يُلزمون السياسيين التابعين لهم بالبرامج الإنشائية والتطويرية المدنية، بما يشابه التطوير المدني في البلدان الغربية، التي لا تتناسب في أصلها مطلقًا مع بيئة وحضارة تلك البلدان، فيقوم

الحمير الصفر في بلدان الحمير السمر ببناء المدن وتنفيذ مشاريع البنية التحتية وغيرها، والتي هي غريبة الشكل والمضمون على أصحاب الأرض، ولا يعلمون هؤلاء الأخيرون خفاياها وأسرار صناعتها، ولا كيفية صيانتها، لتبقى معادلة المُنتج والمستهلك قائمة، فتزداد تبعية الحمار الأسمر المستهلك للحمار الأصفر المُنتج، في جميع مناحي الحياة.

ويزداد جهل الحمير السمر فوق جهلهم ويزدادون تخلفًا، وإذا ما قدر لهم يومًا تعلم كيفية صناعة بناء المدن، فلا يكون ذلك إلا بعد أن يكون الحمير الصفر قد أكلوا الأخضر واليابس من تلك البلدان وعاثوا في أرضها الفساد.

وأعود سائلاً، هل لو كان المسلمون بفكرهم الإسلامي قادة الحضارة العالمية بفكر الإسلام، هل كانوا فعلوا بتلك البلدان التي يفتحونها مثل أفاعيل الحمير الصفر تلك ببلدان المسلمين؟

بالطبع الجواب بالنفي، لأن الإسلام لا يجيز للمسلمين فعل ذلك بغيرهم، ولأن المسلمين يفتحون البلدان ولا يحتلونها.

قلت لحماري:

ها، هل فهمت ما علاقة الإسلام بالصناعة والتطور العلمي؟؟

سكت حماري قليلاً ثم طفق يقهقه ضاحكًا بأعلى صوته، قائلاً :

يا سيدي، إني أضحك منك ومن حسن ظنك بي وبالحمير، فنحن لا نفهم هذا الذي تقول، ومن في ظنك ذاك الذي سيقرأ ما تكتب؟

إنك تكتب كلامًا كبيرًا على عقولنا، وهذا ينبئ عن تواضعك واحترامك لنا، ولا أجد لذلك مبررًا.

قلت لحماري:

عجبًا، أوَ لم تنصت لي ولحديثي للتو؟

قال:

لا، بالطبع، بل سمعت ما قلتَه، وقد أصابني حديثك بالملل، وكاد النعاس يغلبني، ولكن عسى أن تعيد ما حدثتني به في وقت لاحق، ولكن باختصار.

ولكن قل لي يا سيدي بشأن المخطوطات، لماذا أنت غاضب أن أخذ الحمير الصفر المخطوطات (الكتب) من بلداننا؟ الحمد لله أنهم أخذوها، وحافظوا عليها عندهم،، نعم الحمد لله على ذلك، بدلاً من أن نضيعها أو نحرقها، أو نهملها فلا يكون قد استفاد منها أحد؟!

قلت لحماري وأنا أمسك ببنات عقلي أن يفلت عقالها:

وهل تظن يا حماري أن كل ذاك الموروث الهائل المنهوب كان تحفًا فنية أخذوها، إكرامًا منهم لكم، ليحافظوا عليها من الضياع؟ ولذلك أنت تحمد الله على أنهم أخذوها؟ ألا تعلم أنهم أخذوا ثمرة جهد عشرات الآلاف من علماء المسلمين والأمة الإسلامية لمدة أكثر من اثني عشر قرنًا من الزمان ونهضوا بها، واستخدموها لتدمير نهضة المسلمين والحيلولة دون عودتها بعد أن احتلوا بلدانهم وعاثوا فيها الفساد؟ وها أنت وغيرك قد أصبحتم اليوم تنتمون إلى عالم الحمير بكل امتياز، بعد أن كان أجدادكم من العقلاء وأصحاب العزة والسؤدد والنفوذ.

لقد أخذوا مخطوطاتكم التي لا تقدر بثمن، وأخذوا خيرة عقول أبنائكم اليوم، وفرّغوا البلاد من علمائكم، بل وأخذوا دنانيركم الذهب ودراهمكم الفضة، وأعطوكم بدلا منها ورقًا سميتموها نقودًا، أي أخذوا يا حماري كل شيء منكم وعرّوكم من كل شيء، وبنوا على ما سلبوه منكم نهضتهم الصناعية والعسكرية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها وغيرها، وصبّوها بخلاف الإسلام في بوتقة الشر والتسلط والظلم، بل استخدموها في احتلال بلدانكم وبلدان المسلمين، ولا زالوا.

عدت إلى نفسي أحادثها والإحباط يقتلني سائلاً نفسي:

ولكن من أين لي أن أعرف، إذا كنت من أحدثه بحديث يسمع لي فقط ولا ينصت؟ ثم إنه مما يغيظني أن حماري يقر بحميرته، إلى درجة أنه قد استكثر على نفسه أن يلقي عليه أحد مثلي كلامًا راقيًا، وحقائق ثمينة، لم يكن تحصيلها ولم يكن تعلمها إلا بعد التضحية بالغالي والنفيس من المال والعمر، وها هي تُقدم إليه على طبق من ذهب.

إذن لا بد أن يكون قد علم عن نفسه، وعن الحمير في بناء عقليتهم ونفسيتهم أشياء لم أدركها أنا بعد.

أو هل أكون قد أدركت ذلك؟ ولكني لا أريد أن أصدق نفسي، أو لا أريد تصديق الواقع الذي أراه؟ ولا أريد أن أصدق أن الانحطاط والجهل قد وصل بهم إلى تلك الدرجات السحيقة.



حماري و خلط الدين بالسياسة

بادرني حماري بسؤال، بعد افتراقنا أيامًا عدة، قائلاً :

يا سيدي، لماذا تخلط الدين بالسياسة؟

سكت قليلاً، وقد أدركت سريعًا أن هذه الألفاظ، وطريقة استخدامها بهذا الأسلوب، ليست من صنيع أفكار حماري، فحماري ليس لديه وعي أو فهم بما تحدث به، ولو وعى ما قلته له في آخر لقاء لنا، لما ألقى عليّ سؤالاً كهذا.

فرددت عليه بسؤال قائلاً :

وما معنى هذا الذي تقول، خلط الدين بالسياسة؟

سكت حماري قليلاً، وكأنه أحرج من سؤالي، ثم قال:

وما يدريني معنى ذلك؟

فقلت له :

وهل تنطق بما لا تعي؟

قال حماري:

أنا سمعتها بهذه الكيفية على لسان أحد العقلاء، وأحببت أن أعرف ما رأيك في هذا القول، وكأني لمست فيه تهمة لأمثالك.

أدركت من فوري أن حماري قد ذكر شيئًا من بعض ما كنت أحدثه به عند بعضهم، ولكنه ربما حدّث به الآخرين بدون بيان صحيح، فوجد أحد المفوهين أو المتفيهقين من الحمير قد رد عليه بذلك القول الذي أعجز حماري وكتم أنفاسه به، فلم يجد منه مخرجًا، ثم أتاني به

قلت لحماري:

أنت لم تصدُقني القول، فالذي حدثك عن خلط الدين بالسياسة لم يكن أحد العقلاء، كما زعمت، أليس كذلك؟

قال حماري:

لا تؤاخذني يا سيدي، في الحقيقة لا أدري، فقد أصبحتُ لا أميّز بين العقلاء والحمير، خاصة في هذه الأيام، لأن كثيرًا من الحمير أصبحوا يُلبسون أنفسهم حلل العقلاء تقليدًا لهم، حتى أصبح أراذل الحمير كذلك يلبسون لباس العقلاء وعممهم وعباءات الشيوخ وجببهم، وأصبح كثير من مثقفيهم يتفوهون بألفاظ لا يفهمها كثير مثلي، فنظنهم بذلك من العقلاء، وننخدع بهم.

ولكن يا سيدي كيف عرفت أنه ليس من العقلاء؟

قلت لحماري:

أوَ لم أبين لك من قبل من هم العقلاء؟

أوَ لم أقل لك إن الشهادات العليا والأحساب والأنساب لا تغير من الحمار شيئًا؟

وألم أقل لك إن مظاهرهم لا تدل على مخابرهم وجوهرهم؟

وألم أقل لك إن التفوّه بحديث لا يفهمه الناس لا يرقى بالحمار ولا سامعيه شيئًا؟

وألم أقل لك أيضًا أن مجرد ترديد كلام العقلاء لا يرقى بالحمير أبدًا؟ لأنه سيكون كلامًا أجوف وثقافة ليس لها سند أو برهان عند المتحدث بها.

وألم أقل لك أيضًا أن المقياس للعقلاء هو الإيمان بالله الموافق للفطرة، وليس مجرد التصديق بوجوده، وأن اتباع كل ما أنزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو الأصل، ولزوم تغيير كل المفاهيم عن الحياة، والعادات والتقاليد والأعراف والأعمال والأقوال، تغييرها بحسب هذا الاعتقاد؟

وألم أقل لك إن المقياس للحياة الراقية، هو عندما يكون نظام الحكم وجميع الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية والإدارية وغيرها، حتى الصناعة والتجارة والنهضة المدنية تسير بحسب ما أنزل الله؟

ألم أوضح لك حقيقة المقياس الذي تقيس عليه فتعرف الحمير من العقلاء وتعرف الكلام الباطل من الكلام الحق؟

قال حماري:

إذن فقل لي ما معنى خلط الدين بالسياسة؟

قلت لحماري، وقد التقطت أنفاسي استعدادا لإجابته:

لقد جاء يومًا الإسلام، وكان ثم ما زال يحمل عقيدة معينة، وينبثق من هذه العقيدة، بل ويرتبط بها ارتباطًا كليًا نظام معين، ساد هذا النظامُ (الشريعة) يومها الناسَ جميعًا، مسلمين وغير مسلمين، فتغيرت كل مفاهيم الحياة عندهم على أساس هذه العقيدة وهذا النظام المنبثق عنها، فانصبغت عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم وعلاقاتهم ومعاملاتهم بصبغتها. فخرجوا للعالم أجمع بصورة رائعة للحياة الاجتماعية والسياسية الراقية، ما الذي دفع مئات الملايين منهم فيما بعد شعوبًا وحكومات أن يتبنوا هذه العقيدة وهذا النظام المنبثق منها. أي تبنوا هذا المبدأ الجديد (الإسلام)، فارتقى مئات الملايين من الحمير إلى عقلاء. ثم ارتقت حياتهم إلى حياة لم يُشهد لها مثيل في تاريخ البشرية أجمع.

فهال ذلك الحمير الصفر، الذين أرادوا لأنفسهم الخير والرفاهية والرقي الذي أصاب المسلمين، فأرادوا أن يرتقوا مثلهم، فبدلاً من أن يتبنوا الإسلام ذلك الفكر الراقي، وذلك المبدأ بعقيدته ونظامه، بدلاً من ذلك هجم أغلبهم، وكانوا كثر، على بلاد المسلمين، فقاموا يهدمون تلك الحياة الراقية حسدًا من عند أنفسهم، وأصبحوا ينهبون ما أصبح في أيدي العقلاء من خير كثير، وبقوا على محاولاتهم وأفعالهم تلك قرونًا من الزمان.

إلا أن بعض أذكياء الحمير الصفر رأى أنه بدلاً من تدمير حضارة هؤلاء العقلاء، رأوا أن عليهم اقتباس كثير من ما عندهم من علوم وفنون في الطب والهندسة والصناعة والزراعة، ومن السياسة والإدارة والاقتصاد والقضاء والعلوم العسكرية وغيرها كثير، واقتبسوا كذلك من نظام الإسلام الكثير من القوانين والتشريعات وصبوها في بوتقة النظام الرأسمالي وعالجوها ورقعوها ترقيعًا يتلاءم مع نظامهم الرأسمالي.

فكان تبنّي بعض تلك القوانين الإسلامية من قبلهم بمثابة ترقيع ثوبهم البالي، الذي لم يزده الترقيع إلا تشويهًا وبلاء، وهكذا أطالوا عمر نظامهم البالي، وحالتهم البئيسة.

قال حماري:

وماذا بعد؟

قلت لحماري:

أثناء تلك المحاولات الفاشلة لهدم تلك الحياة الراقية التي عند العقلاء، ظهر قساوسة الحمير الصفر ورهبانهم مدعين نيابتهم عن الله في الأرض، وأن الله يوحي إليهم الهداية وطريق الصراط، فقاموا بتقليد الإسلام والمسلمين، وأرادوا الإتيان بمثل ما في الإسلام من نظام سياسي واجتماعي واقتصادي، فأتوا بإفك عظيم، حيث قاموا بوضع أنظمة من عند أنفسهم، وفرضوا عليها قدسية وجوب اتباعها، كون أنهم نواب الله في أرضه، آمرين الناس بإتباع ما جاؤوا به، فكان ذلك بمثابة كارثة مهينة مفسدة مدمرة لاقتصادهم وسياستهم وحياتهم الاجتماعية والخُلقية، بعد أن حالت السيادة لرجال الكنيسة على الناس، وبقي السلطان على الناس للملوك والقياصرة.

ثم جاء من الحمير الصفر حمير مفكرون وأذكياء، بعد قرون من الظلام والانحطاط والتخلف الأوروبي، رافضين سلطة الملوك والقياصرة، ورافضين سيادة رجال الكنيسة الأدعياء، بل ورافضين هذه القسمة التي سحقت الناس وأرهقت الشعوب

وجمدت النهضة، فقام هؤلاء المفكرون يطالبون بنبذ الدين كاملاً، أو على الأقل بإقصائه عن السياسة وواقع الحياة كحل وسط.

فانصبت النقمة بداهة على الدين النصراني، ناهيك عن من ينوب عنه، وقد كانت شعوب الحمير الصفر على صواب، من حيث أن الأنظمة التي كانت تدعيها الكنيسة كانت أنظمة من صنع البشر وليست من صنع الله عز وجل كما يدعون، فما هو من صنع البشر قابل للتناقض والاختلاف والتفاوت، وهكذا استمرت دعواهم حتى نجحت في إزاحة الكنيسة عن الواقع السياسي بعد حروب ضروس وصراعات دموية هائلة، وهكذا سُميت هذه العملية "فصل الكنيسة والدين عن الواقع الفعلي في حياة الناس"، وسُميت فصل الدين عن الحياة، وما لله لله وما لقيصر لقيصر.

وهكذا طغت دعوى الحل الوسط "فصل الدين عن الحياة" فوق كل الدعوات، أي ليس لله حكم على الناس وعلى أنظمة حياتهم، وأصبحت هذه الدعوى هي السائدة عندهم حتى اليوم، وهي عقيدتهم، أما من أصبح يضع النظام والدساتير فلم يختلف كثيرًا، فبدلاً من أن يضعها رجال الكنيسة أصبح يضعها أصحاب السلطان الجدد من الرأسماليين والمفكرين والسياسيين، بمشاركة الشعب كما يدعون.

إلا أنهم بهذا لم ينقلوا حياتهم من الخبال والبؤس إلا إلى خبال وبؤس مثله، ولم يرقوا بأنفسهم من حمير جهلاء، إلا إلى حمير مثقفين وصناعيين ومصاصين دماء، ولم يسلموا قيادتهم إلا إلى مجرمين متفوقين في الإجرام من الذين قبلهم.

فنظر الحمير الصفر إلى من حولهم فوجدوا المسلمين وقد اهتزت أركان عرشهم، دولتهم العلية العثمانية نخرت الخيانة والخائنون أركان عرشها وقواعده، فسال لعابهم على ثرواتها العظيمة وبلادها الفسيحة، فعقدوا من التحالفات فيما بينهم ما يتيح لهم إسقاط هذه الدولة التاريخية العظيمة وتقاسُم أراضيها وثرواتها، وكان لهم ما أرادوا، فأطاحوا بدولة الخلافة الإسلامية (العثمانية)، التي كانت تمسك بزمام الخير على الأرض، وباتت البلدان الإسلامية فيما بعد تحت احتلال الحمير الصفر،

ولكن السحر انقلب على الساحر فقادوا أشرس وأجرم وأوسع حربين عالميتين في تاريخ البشرية، ذهب ضحيتها ما يقارب مائة مليون من البشر، ودمروا عشرات المدن على رؤوس ساكنيها من الحمير الصفر، ونشروا الشر بين الناس في أشنع صور رأتها البشرية.

وبعد أن أصبح للحمير الصفر السلطان على بلدان المسلمين نهبوا ثرواتهم ونهبوا دنانير المسلمين الذهبية والدراهم الفضة، فأُغرقوا هم بالأموال والذهب والفضة والثروات، ثم قاموا يبنون نهضتهم ومدنهم وثراءهم الفاحش ورفاهيتهم، ثم أخذوا ينقلون إلى المسلمين عقيدة غير عقيدتهم وفكرا غير فكرهم وطريقة تفكير غير طريقة التفكير الإسلامية، فكان على رأس هذه الدعاوى هي فكرة فصل الدين عن الحياة (العلمانية أو الليبرالية)، وقاموا يقنعون الحمير السمر بأن فصل الدين عن الحياة هي شرط لمن أراد أن يحظى بنهضة صناعية أو مدنية، أو حياة راقية.

وبالرغم من هذه المغالطة الواضحة التي تجد لها ألف جواب ينقضها، وجد الحمير الصفر من الحمير السمر المثقفين وأصحاب الشهادات العليا من هم سمّاعون لهم، فقام الأخيرون بتبني هذه الدعوى (فصل الدين عن الحياة)، بل وقاموا يدعون لها، بل وأقاموا على أساسها أحزابًا تعمل، وتدعو بهذه الدعوى العلمانية، ولنظامها المسمى بالديمقراطي.

الغريب في الأمر أن المسلمين في العصور الوسطى (بالتقويم الميلادي) كانوا يسودون العالم بمبدأ الإسلام وفكره الراقي، وبحياة راقية في الصناعة والزراعة والطب والهندسة وكافة العلوم، والمدنية التي سحرت قلوب وعقول الحمير الصفر آنذاك. أي أن المسلمين بإسلامهم كانوا هم الرائدين للنهضة، سابقين من يدّعون قيادة العالم الآن بأكثر من سبعة قرون.

والمعلوم أن الحمير الصفر لم يصلوا إلى نهضتهم الحالية إلا بعدما اتخذوا القتل والنهب والاغتصاب للبلدان الأخرى منهجًا لهم وسبيلاً لتحقيق غايتهم، بل ما زالوا وهم على نفس المنهج سائرين ومحافظين. فمنهج الاحتلال والاستعمار عنصر

أساسي وضروري للمحافظة على النهضة الرأسمالية وتطبيق الديمقراطية، وإلا لن تتحقق على الإطلاق.

إذن لو أراد الحمير السمر اللاهثين اليوم وراء النهضة الغربية وأنظمتهم السياسية، كون النظام الغربي في تصورهم يحقق النهضة الصناعية والتكنولوجيا والتقدم والرقي، لو أراد هؤلاء تبني النظام الغربي "الديمقراطي"، كان لا بدّ لهم حتمًا أن يجدوا حميرًا آخرين يستعمرونهم، ويحتلون بلدانهم، وينهبون ثرواتهم ودماءهم وعقولهم، ليحققوا النهضة بالكيفية الغربية.

ولكن من أين للعالم من حمير آخرين خاضعين وجاهزين للاحتلال غير الحمير السمر أو السود أو غيرهم؟ ناهيك عن أن الحمير الصفر ما زالوا يتقاتلون ويتنافسون على السيطرة على كل حبة خردل موجودة في كل بلدان الحمير السمر والسود، وبلدانهم أنفسهم؟

قلت لحماري:

ها، هل عساك فهمت شيئًا؟

قال حماري:

نعم، نعم فهمت أن المبدأ هو عقيدة ينبثق عنها نظام، من جنسها بالطبع، يعني أن المبدأ ليس عقيدة فقط، وإنما هو عقيدة ونظام.

قلت لحماري:

ما شاء الله يا حماري، أحسنت،، ولكني أسألك هل فهمت معنى خلط الدين بالسياسة؟ ومعنى فصل الدين عن الحياة؟ وما علاقة ذلك بالنهضة؟ ومن أين جاءت؟

قال حماري على مضض لربما خائفًا من سؤالي أن يكون اختبارًا له على ما فات:

نعم، نعم فهمت.

وعسى أن يكون حماري قد فهم، ولو شيئًا يسيرًا، فقد أعجز حيلتي.

أكمل حماري حديثه قائلاً :

إنها فعلاً قصة مثيرة، تلك التي قصصتها لي آنفًا، عن الحمير الصفر والكنيسة.

قلت لحماري:

ليس المهم هو القصص، ولكن المهم هو العبرة التي نحصدها من ورائها والحقائق المرتبطة بها، وكيف نقيسها على ما نحمل من مبدأ؟ ويا ليت شعري !!.

قال حماري:

وهل عند كل أمة مبدأ يختلف عن غيرها من الأمم؟،، عفوًا سيدي، نعم، نعم، لقد قلت لي ذلك بالطبع، ولكن كم مبدأ موجود في العالم؟

قلت:

مبدأ في الواقع، أم في الخيال، أم في الكتب؟

قال:

وهل هناك في الواقع مبادئ، وفي الخيال مبادئ، وفي الكتب مبادئ أخرى؟
إنها تبدو كثيرة.

قلت لحماري:

نعم، ولكن سأقول لك كيف يكون ذلك.
في حقيقة الأمر يوجد أساسًا مبدءان رئيسيان يتصارعان منذ تاريخ البشرية.

أما أحدهما فهو المبدأ النفعي الذي عقيدته المصلحة ونظامه (قوانينه وتشريعاته) تنبثق منه، لذلك فالمبدأ النفعي تسمية مجملة لكل الأفكار الوضعية، وما ينبثق عنها من أنظمة، فإن كانت ملكية أو جمهورية أو إمبراطورية أم غيرها فإنها في واقعها صورة من صور المبدأ النفعي الرأسمالي، الذي لا يؤمن إلا بشيء واحد، ألا وهو المصلحة، وفي هذا المبدأ تُوظف كل القوانين من أجل تحقيق المصالح، على جميع

المستويات الفردية أو الجماعية أو الدولية، ولذلك فإنه من الضروري لصاحب هذا المبدأ أن يبتكر ما يشاء من الطرق ويتخذ جميع الوسائل والأساليب التي تخدم المصالح التي يبتغيها، ابتداء من القوة العسكرية، مرورًا بجميع الوسائل السياسية، وانتهاء بجميع أنواع المكر والحيلة والجريمة والظلم، وغير ذلك، وكما هو معلوم لهذه العقيدة أن الغاية عند أصحابها تبرر الوسائل في تحقيق المصلحة.

من الضروري لأصحاب هذا المبدأ أن لا يؤمنوا بأي قيم روحية أو أخلاقية أو إنسانية، إلا فيما لا يتعارض مع المصالح، وهذا أصله في الواقع مصلحي، وليس للقيم فيها أي اعتبار. فالمصلحة هي الأصل وهي الفرع، وفيها سعادة صاحب هذا المبدأ وفيها غايته، فردًا كان أم دولة.

أبرز ما تمخض عن هذا المبدأ المصلحي في القرنين الأخيرين كانا المبدأين اللعينين، الرأسمالي، والاشتراكي الشيوعي.

أما خلاف هذين المبدأين فهو مبدأ الإسلام وعقيدته، أي فكرته الأساسية، وهي الإيمان بالله، والإيمان برسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والإيمان بباقي الرسل من قبله عليهم السلام، وأن الكتب التي أتى بها الرسل، هي كتب سماوية من عند الله، وليست هي من عند البشر، وأن التشريع الذي جاء في هذه الكتب، هو التشريع الإلهي الذي يجب أن يُتبع.

وهو المبدأ الذي تتطلب عقيدته عبادة الله وحده، أي اتباع أوامر الله وحده دون أحد من خلقه، وأن اتباع أحد من خلقه في أحكامه أو بعضها هو خروج عن هذا المبدأ وقوانينه وأحكامه.

في حقيقة الأمر فإن اليوم لا تجد أحدًا يمثل هذا المبدأ في الواقع أعظم تمثيل إلا مبدأ الإسلام، حتى في التاريخ القريب أو البعيد، وهو كعقيدة منزلة من عند الله، بخلاف

المبدأ المصلحي، لا يجوز أن يتبع فيه شيء من دون الله ومن دون رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وهو بخلاف المبدأ النفعي، لا يعترف بالقيمة المادية مجردة من باقي القيم الروحية والأخلاقية والإنسانية، والمصلحة منوطة في تحقيقها بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم واتباعهما لتحقيق باقي القيم، أي حيثما يكون الشرع فثم المصلحة، وليس بالعكس.

ومبدأ الإيمان بالله لا يمكن تحقيقه، أو تحقيق سيادته في واقع الحياة، إلا عن طريق سلطان يُقيمه ويحميه وينشره، شأنه شأن أي فكر في الحياة، وإلا فإنه يندثر بذهاب من أتى على يديه من الأنبياء، وهذا ما حصل للأديان السماوية السابقة، وما يتعرض له الدين الإسلامي في الوقت الحاضر.

ولذلك فإن في واقع الحياة لا يوجد غير هذين المبدأين الرأسمالي والإسلام، حيث تتمثل فيهما شروط المبدأ، وهي عقيدة (فكر أساسي) ينبثق عنها نظام.

قال حماري:

وأي من هذين المبدأين موجود في الواقع، وأي منهما موجود في الخيال، أو في الكتب؟

قلت لحماري وقد أعجبني حسن متابعته النادرة لما أحدثه به :

أما المبدأ الأول "المبدأ النفعي"، فهو الذي يسود الأرض اليوم، منذ مائة عام منفردًا.

أما المبدأ الثاني فهو كما ذكرت لك متمثل في الإسلام منفردًا، وذلك لأن الأديان الأخرى لا تحمل نظامًا يسوس الناس أو يشكل حياتهم أو يؤثر فيها.

أما عن وجود الإسلام في واقع الحياة كمبدأ، فهو غير موجود إلا في الكتب، وليس له على الكرة الأرضية أي واقع ملموس اليوم.

وهو موجود بعقيدته فقط في قلوب الناس، وبشعائره التعبدية في دُورهم، وهو الذي أصبح شأنه شأن اليهودية والنصرانية في واقعهم، حتى لقد أصبح للإسلام اليوم رجال دين يباركون على الناس، ويتبارك الناس بهم، وبأشخاصهم، وبفتاويهم، ويعظمونهم حتى انصرف كثير من التقديس لهم من دون الله.

قال حماري:

إن معنى ما تقول، أن لا وجود للحياة الراقية التي ذكرت لي آنفًا في أرض الواقع، لا وجود لها في أيامنا هذه؟!.

قلت لحماري وقد أدركت أنه يسعى لأن يوقعني في مأزق جدالي، كنت أحاول تجنبه فيكون لجاهل مثله سبيل عليّ، ولكن أظن لا فائدة، فقد وقعت:

نعم، حقيقة لم يعد له وجود في أرض الواقع هذه الأيام.

قال حماري من فوره :

إذن، وإلى ما تدعونني أيامك كلها؟ إلى خيال أو فلسفة موجودة في باطن الكتب فقط؟ إذن فأنت تضيع وقتي ووقتك في حكاوى كثيرة، لا أول لها ولا آخر.

إذن لو أسلمت نفسي لك ولما تقول واتبعتك وتركت سبيلي، لضاعت حقوقي، ولتبددت أموالي، ولأسرفت وقتي وجهدي، ولما استطعت استرجاع شيء منها.

إذن دعنا يا سيدي من هذا الهراء الذي تتكلم عنه، تبًا لك،، هل تظن أني إذا ما أردت سقفًا يؤويني وأبنائي، أو إذا ما أردت مالاً يطعمني وأبنائي، أو إذا ما أردت حاميًا يحميني، أو أمنًا يؤمّني، أو إذا ما أردت المطالبة بحق من حقوقي، أو أردت عزة تعزني، أو كرامة تكرمني وأهلي، أو غير ذلك من الحقوق الكثيرة العظيمة التي ذكرت، هل تظن أني سأميل إلى الكتب أستجديها عزة وكرامة وأمنًا؟ أو أستغيثها مالاً؟، فأقول لها إن سيدي يقول إن عندك العدل فاعدلي، وعندك الكرامة فكرّمي، وعندك العزة فأعِزّي، وأنا حمار فارأفي بي؟!

أو ربما تريدني أن أحمل تلك الكتب فوق ظهري إلى الفقراء والمساكين وابن السبيل والغارمين وفي الرقاب وغيرهم مما سميت لي، وأقول لهم خذوا فكلوا منها، أو اسكنوا فيها، أو اقضوا دينكم بها، أو جاهدوا بها في سبيل الله؟ كما تقول،، أو.... أو....؟

نعم كما توقعت، لقد وجد الخبيث إليّ سبيلاً، وكأنه لم يصدق بخبر، شأنه شأن كلّ الحمير في الأدب والتأدب مع أنفسهم ومع غيرهم، فلا يلبثون يتصيدون عند غيرهم الزلات والأخطاء، لينقضّوا عليهم بألسنة حداد شحيحة على الخير،، وليس لحسن الظن والحلم أو التحلّم، أو تلمس الأعذار عندهم من سبيل.

ولا يلبث أحد الحمير يكابر في الحق بالباطل انتصارًا لشخصه، فلا يتحرى جانب الصواب في الرأي، فلا ينصت لمحدثه ولا يوقره، ولا يصبر على حديث لا يسير في هواه، فيبقى لا يرى في نفسه إلا صاحب الحق، و لا يرى في رأي غيره إلا الخطأ، إلا ما كان يوافق رأيه.

وقد ألتمس لحماري العذر في هجومه هذا، فالحياة الراقية التي أدعوه إليها وأحدثه بها غير موجودة اليوم على أرض الواقع، والأدق قولاً أنها لم تعد الآن موجودة في الواقع العملي والفعلي. وهذا ما أصاب حماري بصدمة عنيفة كنت أنا ضحيتها.

ولكن ما هو ذنبي أنا، إذا كان الحمير أنفسهم قد آثروا أن يصبحوا حميرًا، بعد أن كانوا عقلاء؟

وما ذنبي إذا كانوا قد آثروا الحياة الذليلة على الحياة الراقية؟ فتركوا ما يعزهم واتبعوا دين عدوهم الذي أذلهم؟

وما ذنبي إذا كانت كل طاقاتهم البشرية والمادية والفكرية والعلمية كأمّة، قد توجهت لخدمة عدوهم، وأصبح عدوهم من الحمير الصفر هو سيدهم، وهو حاميهم وهو ربهم، بل هو إلههم الفعلي؟

ألم يكن من الأجدر أن يقابلني حماري بالشكر، ويلقاني بالاحترام والتوقير؟ أني أدعوه وقومه لحياة كريمة، تخرجهم من عبادة العباد والذل والهوان إلى عبادة الله الواحد فالعزة والسؤدد، فيكونون أحرارًا من عبودية غيرهم، ويعودون عقلاء مكرمين بعدما هبطوا إلى درك الحيوان؟

أوَ هل يريد الحمير أن يُرتقى بهم إلى عقلاء وهم نائمون على فرش من حرير في بيوتهم، أو على فرش من الريش الناعم؟

أو يريدون أن تُحمل إليهم الحياة الراقية على أطباق من الذهب والفضة، أو كما حُمل لسيدنا سليمان عرش بلقيس؟

أم يريدون أن يكونوا مثل بني إسرائيل حينما دعاهم موسى عليه السلام إلى الجهاد لخيرهم هم، فقالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون؟

ولكن لماذا تنكدني يا ترى مواقف الحمير هذه، وأنا أعلم مسبقًا أنهم حمير؟ وهل أسترجي من الحمير شيئًا غير هذا؟ إذا لمَا كانوا حميرًا، ولكني أنسى نفسي أحيانا فأستعجل الخير وأغفل الصبر.

وأنسى أحيانا أن تغيير العقول المُفسَدة ليس كبناء العقول الفارغة، وأن الحديث إلى الجاهل يتعذر، والجدال إليه عقيم.

لربما كان من الواجب أن أُفهمه ابتداءً، أن الحياة الإسلامية الراقية غير موجودة حاضرًا، وحديثي إليه عنها إنما هو ضمنًا دعوته إليها، ولكني لو أخبرته بهذا في تقديري لما أصغى إليّ لحظة واحدة.

فكأن حماري وغيره من الحمير لا يريدون أن يمس السكون اليومي الرتيب عندهم أو يكدّره أيّ طارئ أو تكليف، حتى لو كان خيرًا، إلا إذا كان هذا الخير لقمة سائغة ميسورة الهضم ليست في حاجة إلى التفكير أو تحمل تكاليف، وليس

فيها تقديم القليل من التضحيات، وليس فيها خوف من التعرض لأذى معلوم أو مجهول.

فالآن ماذا عساني أن أجيبه لما قال؟ أرى أن عليّ مواصلة هدوئي وحلمي وأناتي، وألزم الصبر للوصول إلى هدفي. فأنا على يقين أنه و باقي الحمير يعانون من هزيمة نفسية وفكرية عظيمة أمام غيرهم من الدول المتقدمة مدنيًا وتقنيًا.



حماري و الحـريـة

تركت الحديث إلى حماري فترة لا أجرؤ على مبادأته بحديث فيما أود الحديث عنه، أو الحديث عن الحياة الراقية التي يخلقها المبدأ، فهو يقف موقفًا رافضًا، بل وعازمًا على الرفض، وقد عجزت حيلتي إلى هنا لأدفعه، حتى ولو للقراءة فقط، أو ألفت نظره للكتاب الذي يلازمني وأنا أقرأ.

وقد تكررت الحالة، وتكرر المنظر وهو يقدُم عليّ، لا يراني إلا منهمكًا في القراءة، حتى نجحتُ واستثرت حفيظته.

فقال حماري:

ما هذا الذي تقرأ؟ ومالي أراك لا تألوا جهدًا على ترك هذا الكتاب؟ ولا أراك إلا هالكًا وأنت عاكف عليه؟

قلت لحماري وأنا مسرور بأني أصبت ما ابتغيت:

إنه عن المبدأ الذي أتحدث لك عنه مُفَسرًا بفكره الراقي الصحيح، خذ فاقرأ إن شئت قليلاً.

أخذ حماري الكتاب وحمله وهو زاهد فيه، فأخذ يقرؤه أمامي جهرًا، فقرأ النص الذي به كلمة كلمة، كل كلمة مستقلةً بذاتها، غير مرتبطة ببعضها البعض، فلا يربط الفعل بفاعله، ولا الفاعل بمفعوله في جملة مفيدة واحدة، والجملة المفيدة التي أحسن قراءتها، قرأها غير مرتبطة بما قبلها أو بعدها من الجمل المفيدة، فلم يحصل هو على فهم من النص، ويتعذر على السامع أن يدرك ما يقرأه بهذه الكيفية.

وقد أدركت حينها أن حماري، على الرغم من شهادته الجامعية لا يقرأ مطلقًا، أو قد يقرأ ولكن من الصحف والمجلات بعض عناوين الأخبار، أو ما تطرف منها أو قصر، وما سهل فهمه من الكلمات الميسورة عادة في الأحاديث العامة وقضاء الحاجات.

فقرأ ولم يستطع أن يأت بالمفهوم الذي حمله منطوق النص، فهو لم يقرأه بسياقه الصحيح، ولذا أدركت أنه لم يفهم، وبالرغم من ذلك هز رأسه الكبير موحيًا لي بأنه فهم ما قرأه.

ثم دعى الكتاب ونظر إلي يسألني قائلاً :

وهل لأن يتعلم أحدهم المبدأ الذي تقول، عليه أن يقرأ هذه الكتب السميكة المملة الشكل، صعبة الألفاظ، الخالية من الصور والألوان؟

كنت مسرورًا أني دفعته لأن يكتشف حقيقة حاله وقلة حيلته في القراءة بالرغم من شهادته التي يلوح بها أمام أقرانه وغيرهم، ولكن خاب ظني للمرة الألف أنه بدا غير مكترث،، تنهدت بعدها بعمق و قلت له ويا ليته الآن ينصت لما أقول:

إن المبدأ الإسلامي بعقيدته ونظامه علم ككل علوم الدنيا، كما تتعلمه بالتلقي، تستطيع أن تتعلمه من خلال الكتب،، إلا أن كونه مبدءًا فهو يختلف عن العلوم الأخرى، فقد يتعلمه أحد الحمير فلا يؤثر فيه ولا يرقى به قيد أنملة، وقد يتعلمه غيرهم ليستخدمه للفساد والإفساد به، كما يفعل شيوخ الحمير السمر، وقد يتعلمه غيرهم كالحمير الصفر ليستخدموه للسيطرة على الحمير السمر، ويبقونهم تحت سلطانهم.

وقد يتعلمه أحدهم حتى يزيد من ثقافته بما يتحدث به عادة العقلاء، فيجاري العقلاء، ويماري به السفهاء أمثاله، أو يجاري به العلماء الذين يلاقيهم أو شيوخ الحمير الذين يخالطهم، أو يتعلمه ليصرف به وجوه الحمير إلى شخصه، أو يجعل ذلك سبيلاً يؤهله لتمثيل أدوار التقوى لخداع غيره وأكل مال غيره بالباطل.

قال حماري وهو يستعجلني، ولا أعلم سبب ذلك:

وأيهم إذن الذي يرقى بتعلم المبدأ؟

قلت:

بالطبع لا أحد من هؤلاء الحمير يستطيع أن يرقى بما تعلمه، حتى ولو أصبح أعلم العالمين به.

قال حماري:

عجبًا لما تقول.

قلت لحماري:

نعم هذه هي الحقيقة، فلا يرتقى أحد من الحمير بالمبدأ الإسلامي ما لم يتبناه بعد أن يؤمن به (ولا أقول يصدقه)، ويؤمن كذلك بالنظام التى أتى به كاملاً، بل وحتى يجعله موضع التطبيق والعمل، بل وحتى يعمل بمقتضى الدعوة إليه ويعمل على نشره، ويرفض ما سواه، ومحاربة من يحاربه، ويعادي من يعاديه. فإذا لم يتحقق الإيمان بالله، ولم يتحقق الإيمان بالنظام الذي أرسله الله غاب التبني، وإذا تحقق الإيمان بعقيدة الإسلام، وغاب التبني لها، لبثت عقيدة الإسلام فلسفة معلقة في الهواء لا قيمة لها، ولم تغير ما بالإنسان ولم تنهض به.

ولو افترضنا جدلاً أنه تم الإيمان بعقيدة الإسلام، ولكن لم يتم تبنيها في واقع التطبيق، فكيف سيعيش الناس؟ بالطبع لا بد لهم من نظام يعيشون به، فإن لم يتبنوا نظام الإسلام فحتما سيتبنون نظامًا غيره يخالفه، كون أن الإنسان لا يسعه العيش بدون نظام، وإذا ما فعل ذلك وتبنى نظامًا غير النظام الذي أتى به الإسلام، فلن يتحقق الإسلام، ويعتبر الواقع كله في حكم الشرك. وبالتالي يصبح المبدأ فلسفة مطوية في الكتب أو في الأذهان، ولا يكون له واقع البتة، وما الفلاسفة والمستشرقون، والجامعات القائمة على تدريس الإسلام كعلم مجرد إلا خير مثال على ما أقول... وأعود فأذكرك بما حدثتك عنه سابقًا عن القراءة.

قال حماري:

ولكنك لم تحدثني كيف نتعلم المبدأ.

قلت لحماري ويااليته يصدق فيما يقول، أو يعي ما يقول:

خير طريقة لتعلم المبدأ، بصفته عقيدة (فكر) وينبثق عنها نظام، هي طريقة التلقي، فهي أساس تبادل العلم ونقله، وأساس الإبداع في تطوير العلم وتوسعه وانتشاره، أما القراءة فليست هي إلا للاستزادة من المعلومات المرتبطة بالعلم المُتلقى، حتى أنه قد يُستغنى عنها في تعلم المبدأ إذا ما مورس التلقي بكيفية مكثفة ومتقنة، وبتطبيقه على أرض الواقع، وذلك لأن المبدأ بعقيدته ونظامه في حاجة إلى الجدال بالبراهين العقلية "الحكمة"، التي تثبت صحة وحقيقة الفكر التي تحمله العقيدة، ثم حقيقة وصحة النظام الذي ينبثق عنها.

فالجدال بالبراهين العقلية هو الأداة الوحيدة لتثبيت الحقائق الفكرية، والتي ترفع عنها جميع الملابسات، وتطهرها من جميع الشكوك، وتنقيها وتصفيها من كل الأفكار الغامضة التي قد تشوب جوهرها.

ولذا يجب أن يكون هذا الجدال ميسرًا غير متعسر، ومطلقًا غير مقيد بأي قيود، بل وأن يسمح بمجادلة كل الأفكار التي تخالف هذه العقيدة، حتى يتبين أنه هو الحق، وليس في غيره حق.

غير أن التلقي يمكّن العالم والدارس الوقوف على مسائل كثيرة لغوية وشرعية، كالوقوف على الألفاظ بمعانيها اللغوية، ومعانيها الشرعية، وكذا على مدلولاتها، وعلى الاصطلاحات الممكنة في اللفظ، فالألفاظ العربية ذات المدلول الشرعي لا يغني عنها ألفاظ أخرى لنقل أفكار الإسلام، وتبيان فكرته.

ونلاحظ أن هذه الطبيعة الجدالية المطلوبة في الإسلام، تتضمن التحدي لأي عقيدة عقلية أو نقلية أخرى، وتتضمن الاستعداد لدحض أي أفكار عقدية غير أفكاره، وتتضمن التحدي بأن الإسلام هو الطريق الحق الأوحد.

فحرية الجدال المطلقة في عقيدته هي حق كل إنسان في الحياة، ليصل منها إلى الحقيقة التي سيُصبغ بها حياته.

قال حماري مستبشرًا :

إذن فإنه لا يتوجب علي القراءة؟

تبسمت وقلت:

نعم، قد لا يتوجب عليك ذلك بشروط، ولكن يتوجب عليك أن تتلقى العلم فتتعلمه، فتتبناه على بصيرة، فتعمل به.

قال حماري:

يعجبني في حديثك أنك تؤمن بالديمقراطية، وأنك تشجع الحرية وتقرّها.

قلت:

عجبًا، وهل قد ذكرت لك شيئًا عن الديمقراطية؟ حتى تقحمني في الحديث عن الديمقراطية، التي لا تفهم أنت شيئًا عنها.

قال:

حرية الجدال الذي ذكرت للتو، أليست هي الديمقراطية؟ وهي تعجبني، فهي شيء حسن ومريح.

قلت لحماري:

يا حماري، يا حماري، من قال لك أن الدعوة إلى الجدال هي من حرية الرأي الديمقراطية، أو أنها ديمقراطية، أو أن مولدها ديمقراطيٌ؟

ألم أنصحك أن لا تردد ألفاظًا لا تعي معناها، ولا تعي المفهوم الذي ترمي إليه؟

قال:

المعذرة، ما الخطأ الذي ارتكبته الآن، الديمقراطية معلومة عند كل الحمير، ويردد ذكرها ذوي الشهادات العليا منا، وحرية الرأي هي الديمقراطية، يا سيدي

الديمقراطية هي صانعة الحرية والعدل والمساواة والسعادة، أليست كذلك؟ وقد أصبحت مطلبًا لكل العالم، فما بالك تنكرها؟ وتحدثني عن شيء عاف عليه الزمان، الإسلام وحرية الجدال في الإسلام.

قلت:

مهلاً يا حماري، ألم أقل لك إن أكثر الحمير السمر المثقفين أمسوا يرددون أي شيء يمليه عليهم الحمير الصفر، مما فسد وصلح؟ ومما صح معناه، ومما جانب الصواب؟

إن الذين ابتدعوا الديمقراطية من الحمير الصفر أنفسهم، يجهل جلّهم معناها، ويجهلون واقعها الحقيقي، فمنهم من يؤولها ويظن أنها سياسة الحل الوسط، ومنهم من يستخدم لفظها لسلوك التعقل والتفهم عند الإنسان، ومنهم من يؤولها بحرية الرأي، فكل يؤولها على قدر فهمه وعقله تأويلاً خاصًا، ويرمي في سلة لفظها أي صفة يحبها في أي نظام، حتى ولو خالف الديمقراطية معنى ومفهومًا وواقعًا، وسأفهمك معنى ما أقول.

قال حماري:

لا، بل قل لي سريعًا أي شيء عنها، ولكن باختصار.

قلت لحماري:

إن الديمقراطية هي نظام الحكم التشريعي في المبدأ الرأسمالي، واللفظة تعني بالعربية حكم الشعب، أي أن يكون الشعب أو الناس هم الذين يشرعون لأنفسهم القوانين التي تناسب أهواءهم، في جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، كما حصل في أوروبا وقد ذكرت لك قصته آنفًا.

قال:

أو هذا الذي قلت يا سيدي هو الديمقراطية بحق؟ وما العيب في ذلك إذن؟ إنه شيء حسن، أي أن الناس قادرون على أن يقولوا كلمتهم ويقرروا مصيرهم ويضعوا

الأحكام التي تناسبهم، وتناسب زمانهم ومكانهم، فلا يكون لأحد منهم عليهم سلطان أو تسلط، فهم بذلك أحرار وهذه هي الحرية الرائعة.

قلت لحماري:

لو كان الأمر كذلك كما قلتَ يا حماري لوافقتك على الإطلاق،، على شرط أن يقرر الناس جميعهم الأحكام كلها لجميعهم، دون تفضيل بعضهم على بعض، ودون إغفال شيء من حاجات الإنسان المادية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية والغرائز والحاجات العضوية لجميعهم، وأن لا يكون ذلك على حساب الفقراء منهم، أو يكون على حساب بلدان أخرى وشعوب أخرى باحتلالها واغتصابها واغتصاب ثرواتها، حتى تتحقق الرفاهية لما يتناغم مع حرياتهم الغير محددة بحدود أو مقيدة بقيود، ودون اختلاف، وعلى شرط أن لا يكون هناك تناقض في الأحكام أو تضارب بينها، أو تعارض مع المستجدات في الحياة أو في أماكن العيش المختلفة، فتتحقق السعادة لجميع الناس بمختلف أعمارهم ومختلف أجناسهم، ومختلف أوضاعهم الاقتصادية، وبمختلف أزمانهم وأماكنهم.

أما ما حاز على إعجاب الحمير بالفهم الذي فهموه فليس لي ولا للديمقراطية شأن به، لكني سأحدثك عن جانب هام في مسألة الديمقراطية، وهو علاقة الحرية بالديمقراطية، وعلاقة الحرية بالإسلام.

قال حماري:

أوفي الإسلام حرية؟ إني لا أرى أن فيه حرية قط، فأنا لا أرى بين الحمير السمر حرًا قط، أو أن يستطيع أحدهم أن يبوح برأيه قط، بل أرى أن الحمير الصفر هم أكثر الناس ديمقراطية، وهم أحرار، ويقولون ما يريدون.

قلت لحماري:

لا تستعجل الجواب يا حماري، هناك فرق بين واقع صنعه الإسلام وبين واقع لم يصنعه الإسلام وتم الإدعاء بأنه واقع إسلامي كالذي تصفه للتو. فالإسلام شيء

والحمير السمر شيء آخر، فدعني أحدثك ما لم يحدثك به أحد قبلي عن الحرية والديمقراطية والإسلام.

إن مفهوم الحرية في الإسلام، تعني التحرر من العبودية، فكل من يخضع لأي نظام من الأنظمة فهو عبد لها أو لصاحبها الآمر لها، وإن عدم خضوعه لها هو تحرر منها ومن صاحبها الآمر بها، أي أن الحرية نقيض العبودية.

فالخضوع لنظام الإسلام هو عبادة لله وتحرر وانعتاق من كل مخلوق على وجه الأرض، وترك نظام الإسلام يفتح باب الشر على صاحبه، فهو يترك العبودية والخضوع لله سبحانه وتعالى ويخضعه لما دونه من الخلق، فيكون سيده الذي يعبده إما نظام يشترك في وضعه كثيرون كالنظام الديمقراطي، أو يعبد ملكًا أو زعيمًا يقرر الأوامر والنواهي في أمور الحياة العامة والخاصة، أو أن يعتزل الناس فيضع نظام حياته لنفسه فيكون هو رب نفسه وإلهه من دون الله ومن دون الناس أجمعين.

أما ما تتداوله الألسن اليوم من حرية وتهتف بها، فهي تلك الحرية التي صنعها الحمير الصفر، وأعطوا لها مفهومًا خاصًا يختلف تمامًا عن مفهوم الحرية في الإسلام. هذا المفهوم هو "التحلل من أي نظام أو قيود تقيد الأفعال والأقوال والمواقف الصادرة عن الدين" فيما يتعلق بعلاقات الإنسان بنفسه في الملبس والمأكل والمشرب والمسكن، أو فيما يتعلق بعلاقته بغيره من الناس كفرد أو مجتمع أو دولة وأنظمة الدولة وقوانينها، وفيما يتعلق بعلاقته مع خالقه، فله أن يصدق بوجود خالق أو يكذب فلن يغير ذلك من نظام الحياة شيئًا، أي تحلل مطلق من كل الأفكار والأنظمة الصادرة عن الدين، إلا ما يفرضه النظام التحرري، مما قد اختاره وقرره الناس (وبلفظ أدق مما قد قرره نوابهم في البرلمان) بأنفسهم لأنفسهم.

ثم جاء الحمير السمر ولم ينقلوا مفهوم الحرية المخالف لدينهم فحسب، بل تبنوا تلك اللفظة، وتبنوا المفهوم الذي تحمله، بل قاموا يطالبون بالحرية (بالمفهوم الرأسمالي الديمقراطي)عن عدم دراية وفهم لحقيقتها وواقعها، تقليدًا أعمى للحمير الصفر.

إن للحرية عند الحمير الصفر واقع معين، وتاريخ ألزم ظهور فكرة التحرر والحرية، وذلك عندما أفسد رجال الكنيسة في العصور الوسطى الغربية، وقاموا بسن القوانين المفسدة المُدّعاة أنها من عند الله، وبتقاسم التشريع والسلطان مع القياصرة والملوك، حيث أظهر ذلك آنذاك فسادًا اجتماعيًا وأخلاقيًا واقتصاديًا عارمًا، ما ترتب عليه ظهور ثورات فكرية تطالب بالتحرر من هذه القيود والقوانين الكنسية.

وعندما نجحت ثورة هؤلاء، تقدموا بفكرة التحرر من قيود الكنيسة ومصائبها وفسادها، وكذا التحرر من قوانينها ومن اتباع قوانينها، لينسلخوا من قيود الكنيسة وتسلط القياصرة إلى رحابة الحرية.

كان نجاحهم بالتحرر من قيود الكنيسة نجاحًا عظيمًا، نُصبت له الرايات ونحتت له التماثيل، حتى أصبحت الحرية عمود الأساس الرئيسي للنظم الغربية الحديثة، فتحولوا من فساد رجال الكنيسة العظيم إلى فساد الحرية الأعظم.

لقد أصبحت الحرية والدعوة إليها شعارًا ناجحًا وعظيمًا وكذلك أصبح مخيفًا ومرعبًا، يُرفع في وجه كل من يتجرأ ويريد أن يسن قانونًا يرى فيه الحمير الصفر تقييدًا لأفعال وتقييدًا لتصرفات يحبونها ويهوونها.

ضم شعار الحرية تحت لوائه كل أنواع الحريات، حرية العقيدة، والحرية الشخصية، وحرية الرأي، والحرية الملكية.

فحرية العقيدة تعطي الإنسان المنتمي لهذا الفكر حرية قرار الإيمان بالله، أو بالشمس، أو بالقمر، أو بالمطر، أو بأي شيء يريد، أو حتى عدم الإيمان بأي شيء، أو يبدل ويغير عقيدته كيفما شاء، فليس الإنسان عندهم ملزمًا بشيء، ولا فعله مقيد بأمر أو بنهي في الحياة في عقيدته ولا ما يترتب على قراره من أفعال وأقوال إلا الأفعال التي أحظرها النظام.

أما الحرية الشخصية فهي مقدسة كغيرها، وشأنها شأن غيرها من الحريات، فللإنسان حق التصرف المطلق بجسده، وعقله، وخلُقه، ومأكله ومشربه وعاداته، وفي كيفية إشباع غرائزه الفطرية، لا يقيده في ذلك أمر أو نهي، إلا ما فيه تعديًا على حريات الآخرين.

أما حرية الرأي،، فللإنسان كذلك الحق البوح بما يشتهي من الأقوال، أو الآراء، دون التزامه بأي منهج أو طريقة، صحيحة كانت أم باطلة، خيرًا كانت أم شرًا، وليكن ذلك الرأي ما يكون، فللإنسان مطلق الحرية في رأيه لأي أمر وفي أي مسألة بميزان حر، وليس بميزان محدد من عند الله، أو من أي أحد من العالمين.

وكذا حرية الملكية في الرأسمالية تطلق العنان للإنسان في طريقة كسب المال من أي وجه من وجوه الكسب خيرًا كانت أم شرًّا، وللإنسان حق صرف المال كيفما يشاء، وفي أي وجه من وجوه الصرف، في زنا أو مجون أو خمر أو قمار أو رشوة أو شراء الذمم، أو بإتلاف المال إن أراد، أو يورثه لمن يشاء، لا يقيد فعله فيما يفعل قيد من قيود النظام، أو أحد القيم، أو الأفكار أيما كانت.

طبيعي أنه عندما بدأت هذه الفكرة، فكرة الحرية (المطلقة)، قتل الناس بعضهم بعضًا، وسرقوا ونهبوا وبخسوا بعضهم أشياء بعض، وتاجروا بالنساء والأطفال والخمور، وقامروا بالأموال، ووطأ الناس المحرمات (كالأم والأخت)، وانحطت العلاقات الاجتماعية في الأسر، واحتكر الأغنياء التجارة والصناعة، واستعبدوا العمال، وتسلط القوي على الضعيف والغني على الفقير.

فانحلت المنظومة الاجتماعية أكثر من قبل، وساد الخوف والكره بين الناس، وتفشت الأمراض النفسية والجنسية والاجتماعية، وعانى ضعاف الناس وعجائزهم الفقر والعزلة والقهر، وعزّ الذليل بقوته وماله وزاد سلطانه، وذلّ العزيز ضعيف الجسم، قليل المال والحيلة.

ثم بعد دهر طويل من الفوضى، لم يجد الحمير الصفر بدًا من تقييد هذه الحرية المطلقة، وترقيع النظام، خاصة بعدما تعرضت مصالحهم، وبنوكهم ومؤسساتهم التجارية للخطر والسطو، ولم يكن هذا التقييد إلا محدودًا وفي إطار معين وليس شاملاً ضد كل الفساد.

وما زال الحمير الصفر كذلك يعانون من الكوارث المترتبة على تلك الحرية، بالرغم من تقييدها، بل وكل يوم تثمر لهم هذه الشجرة الخبيثة ولكل العالم ثمرًا خبيثًا يحتارون في أمره، ولا يقدرون على وأده، وما زالوا يتخبطون في ترقيع أنظمتهم التي سادها الربا وتجارة القمار والأسهم والاحتكار.

ثم جاء الحمير السمر، بعد كل هذا، وبدلاً من أن يعودوا ويعيدوا غرس شجرتهم الطيبة أصبحوا، خاصة المثقفين منهم، يطالبون بالحرية، دون أن يدروا ماهيتها.

قلت لحماري:

هل فهمت شيئًا يا حماري عن الحرية؟

قال حماري:

والله إن الحرية شيء جميل، ولكن لماذا لا يكون عند الحمير السمر حرية كما هي عند الحمير الصفر؟ وأين الإسلام من تلك الحرية، ألا يوجد في الإسلام حرية؟

قلت لحماري:

من أعظم ما أتى به الإسلام هو الحرية والتحرر من الطغيان والفسوق والفجور ومن أن يكون لأحد من الناس سيادة على غيره بخلاف الحرية المدعاة بالمفهوم والنظام الغربي.

إن من الطبيعي عند كل إنسان في الحياة الدنيا السعي لتحقيق مصالحه وإشباع غرائزه، بما فيها تحقيق الحرية، فإما أن يكون هذا الإشباع وهذا السلوك منطلقًا من نظام وضعه الإنسان لنفسه، أو منطلقًا بنظام وضعه له غيره من بني الإنسان، أو من خلال النظام المنزل من عند الله.

فإذا اتبع الإنسان هواه لتحقيق مصالحه بكيفية يصطنعها لنفسه، أو اتبع الإنسان هوى غيره من الناس، مختارًا أو مجبرًا، وذلك بأتباع النظام الذي رسمه له هذا أو ذاك، يكون خادما أو عبدًا لهذا النظام.

وإن اتبع الإنسان مختارًا النظام الذي هو من عند الله، الذي يتطلب منه الإيمان بالله، وإتباع أوامره واجتناب نواهيه، فلا يتبع غير الله، يكون الإنسان عبدا لله وحده.

أي أن هذا الاتباع عبادة في حقيقته كما فهمها العرب وأفهمنا إياها الإسلام، فإذ ما اتبع الإنسان هوى نفسه، كان عبدًا لهواه، وحرًا من هوى غيره، أي حرًا من عبادة (اتباع) غيره، وكذا حرًا من عبادة (إتباع) الله.

أما إذا ما اتبع الإنسان نظامًا وضعه أحد المخلوقات، يكون إذا عبدًا لمن اتبع نظامه، وحرًا من أمر الله وعبوديته، وحرًا من هوى نفسه وعبوديتها.

وإذا ما اتبع الإنسان النظام الذي أتى من عند الله، كانت عبوديته لله وحده، الذي هو في حد ذاته تحررًا من عبودية الهوى، وتحررًا من العبودية لأي كائن من كان من الأحياء والمخلوقات.

فالحمير الصفر بما يمليه عليهم النظام (الرأسمالي) الديمقراطي هم عبيدٌ لأنفسهم (شهواتهم وأهوائهم)، وفي ذات الوقت عبيدٌ لغيرهم من المخلوقات (الحكام)، وهم أحرار من عبودية الله، وبهذا الحال هم راضين، وله قاصدين.

قال حماري:

وما الفرق بين هذه المناحي الثلاثة؟ ثم قل لي أخيرًا ما علاقة الإسلام بالحرية، خاصة حرية الرأي، وحرية العقيدة؟

قلت لحماري:

لا تستعجلني الإجابة على ما تريد فهمه، لأنك لن تفهم الألفاظ ومعانيها التي تفسر الأحاديث، والمفاهيم المرتبطة بها، إذا لم تنصت لي جيدًا، فقد أصبح الحمير حميرًا لأنهم قد أزيحوا عن فهم جل الألفاظ المتعلقة بالفكر الإسلامي وعن جلّ الألفاظ

المتعلقة به، وإلى انحراف المفاهيم المتعلقة بالعقيدة الإسلامية، وإلى استبدالها بمفاهيم مغايرة لها، أدت إلى انحراف الفهم الصحيح، ثم إلى انحراف الفكر الإسلامي في عقولهم، وبالتالي إلى انحراف سلوكهم ومواقفهم وحياتهم، فأصبحوا بالتالي حميرًا، ناهيك عن ضعف اللغة العربية عندهم ابتداءً، وهكذا قد شُيِّد سور عظيم لا يُقهر بين الحمير والنهضة بالإسلام.

فالإسلام أصبح يعرضه بعضهم على أنه دين السلام أو الاستسلام، وعرضته أمريكا والغرب مؤخرًا على أنه دين الإرهاب والقتال والحرب بمفاهيم جديدة وتعريف جديد، وكذا الحرية قد تغير مفهومها الإسلامي الأصلي، وكل يوم يأتي عابث بالألفاظ المؤثرة ويصنع لها مفهوما خارجا عن أصله.

أما الفرق بين المناحي الثلاثة في الإتباع، أي العبادة، التي ذكرتها لك آنفًا، فذلك أن الاتباع الذي يتخذ الإنسان فيه هواه إلهًا له، فهذا المنحى هو الذي يرفض الإنسان فيه جميع الأنظمة التي حوله أيًا كان مصدرها، الله أم البشر، فيكون هواه هو الذي يقرر له كيفية إشباع غرائزه وحاجاته العضوية، وعلاقته بنفسه وبغيره، هذه الصورة هي صورة فريدة تتمثل في الشاذين من الناس كالمجرمين والمفسدين والضالين من المفكرين وغيرهم، الذين لا يبالون بتضليل الناس أو قتلهم أو هتك أعراضهم ونهب أموالهم، وغاية الغايات عندهم هي أهواؤهم ومصالحهم الذاتية، هذه الصورة غالبًا ما تكون فردية، وأحيانا أخرى تنظيمية (كالعصابات والدول الإجرامية)، ويبرز شذوذ أصحابها بروزًا واضحًا.

أما المنحى الثاني فهو عندما يتخذ الإنسان نظامه من عند غيره من البشر، كالأنظمة الشيوعية أو الرأسمالية أو الفوضوية، فيتبع الإنسان ما يأمره به أصحاب السلطان وينتهي عما ينهونه عنه، ويروض المتبع فكره ونفسه وأهدافه بحسبها، مرتضيًا القبول والتسليم، وخاصة إذا ما كانت أنظمة أصحاب السلطان هؤلاء تسد الجوع وتلبي الحاجات، وكانت تكفل قدرًا جيدًا من الأمن والاستقرار، أو كانت تمتاز برفاهية العيش ورغده كما عند الحمير الصفر.

ينحو أصحاب هذا الاتجاه إلى إعطاء الولاء كاملاً لأصحاب السلطان، أيًا كانوا، فيكون صاحب السلطان هو السيد المعبود، ويصبح الناس بالتالي عبيدًا لأصحاب السلطان، وأحرارًا من هوى النفس وعبادتها، وأحرارًا من عبادة الله.

هذا المنحى يصنع من الطبيعي عادات وتقاليد وأعراف يسير الناس بحسبها بغض النظر عن صلاحها أو فسادها، ويسمى الذي يخرج عنها "خارجيًا" أو مفسدًا أو مجرمًا في عرف السلطان وعرف الناس المتبعين لهذا السلطان.

وكان رسولنا الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه خير مثال مع قريش، فقد كان في نظرهم بما جاء به "خارجيًا" أو مفسدًا (تطهر وتشرف سيدنا عن ذلك)، ولقد سموه ومن اتبعه صابئون، أي خارجون أو ناشزون.

يحدث في هذين المنهجين الذي ذكرت دائمًا المزج بينهما، فيمزج الناس بين عبادة السلطان وعبادة أنفسهم هم، فيشركون مع عبادة السلطان عبادة أنفسهم، بالقدر الذي هم في حاجة إليه، وبقدر الثغرات التي يلتمسونها في النظام وتسمح لهم بمخالفة النظام، دون الوقوع في شَرَك عقوبة السلطان.

ولقد أثبت هذان المنحيان فشلهما الذريع، واثبتا أنهما وحلٌ نتن غاصت فيه شعوب الحمير الصفر على مر التاريخ، ولا زالت تغوص فيه وتُغيص شعوبًا آخرين مثلها معها، بل إن العالم كله اليوم أصبح يئن من وطأة هذين المنهجين.

وهذا أمر طبيعي منذ تاريخ البشرية أن لم يكن هناك من وَضَع للناس أحكامًا يسيرون بها، ويتخذونها لصنع عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم إلا ضلوا وأضلوا كثيرًا، وبات قليلهم شباعًا وكثيرهم جياعًا، قد أكل بعضهم لحوم بعض، قليل أعزاؤهم كثير أذلاؤهم، قد ظلم بعضهم بعضًا.

فلن تجد بين البشر جميعًا من قد أحاط علمًا بحاجيات الناس كلهم، بمختلف أعمارهم أو أحوالهم، أو أزمانهم، أو أماكنهم، أو يكون قد أحاط بكيفية إشباع حاجاتهم العضوية وغرائزهم الإنسانية، وإشباع الميول الناتجة من خلالها، إشباعًا لا ظلم فيه

ولا غبن فيه لأحد منهم على أحد، فلا يعز بعضهم بذلة آخرين، أو يذل بعضهم بعزة مثلهم.

ولن تجد من البشر في السابق والحاضر من قد أحاط علمًا بنظام يورث بين الناس رحمة وحبًا، ويخلق بينهم أسمى صفات العطف والتراحم والتآخي والتكاتف والتسامح والتسالم والتخاضع والترابط والتآلف، فيندحر الشر بين الناس، وينتشر الخير ويشيع.

قاطعني حماري قائلاً :

وأين الحرية إذن في المنحيين السابقين الذي ذكرت؟ وأين الحرية دونهما؟

قلت لحماري:

إنك وقومك تتحررون من عبودية إلهٍ ما، ثم تسقطون في عبودية إلهٍ آخر غير الله.

فإما أنكم تعبدون أنفسكم وأهواءكم، أو أنكم تعبدون غيركم وأهواء غيركم، أو تمزجون بين العبادتين متخبطين، لا تنتمون إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، ولا إلى عبادة الله وحده.

قال حماري:

والله لا أفهم شيئًا مما تقول، ولم أعد أعرف أين الحرية من عدمها.

قلت لحماري:

إذن سأوجز لك قولي،، يا حماري إن اتباعك لشيء ما، هو عبادة له، فإما ان تعبد نفسك وإما أن تعبد غيرك من الناس، أو أن تعبد الله الواحد الأحد.

عبادتك لله يا حماري هو تحررك من عبودية كل المخلوقات، وتحررك من عبادة نفسك وهواها، ومن سلطان الهوى والمادة، فتكون رجلاً حرًا نافعًا لنفسك وللناس أجمعين، بدلا من أن تكون رجلاً فاسدًا مفسدًا بإطلاق حريات تعطى لك على غير هدى، أنت وكل باقي الناس.

وسأكمل لك حديثي، عسى أن أنجح في تقريب فكرتي إليك، فإن أنت أدركت المقارنات، فقد تدرك حينها مبتغاك.

قلت مكملاً :

أما المنحى الثالث، فهو الإخلاص لعبادة الله وحده، أي تسليم نفسك وهواها وإرادتها لله سبحانه وتعالى، وذلك بالتسليم المطلق لإتباع كل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهى عنه في حياتك الشخصية ومواقفك وقراراتك وتعاملاتك وعلاقاتك كفرد.

عبادة الله وحده تمنع أحدًا من البشر أن يكون له سلطان عليك أو على أحد من أهلك أو على الناس، إلا في إطار أحكام الله في جميع مناحي الحياة (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية والإدارية والزراعية والتجارية)، وكذا في جميع مناحي الحياة المدنية والأخلاقية والتربوية والدعوية والتعليمية.

عقيدة الإيمان بالله والإخلاص له وحده تتفرد بصلاحها لكل المخلوقات دون غيرها وذلك لموافقتها لفطرة الإنسان التي تشعر الإنسان بالخالق الذي خلقه، وأنه مخلوق لخالق، وتعزز ظنه بتنزه خالقه عن صفات المخلوقات وسموّه عن طبيعة عجزهم ومحدوديتهم.

إن السر في هذه العقيدة، أنها غير وهمية أو خيالية أو اعتباطية، بل هي عقيدة صدق تَثْبُت بالبراهين العقلية، البراهين المستندة إلى الحواس، وإلى حرية طرحها، ومجادلة فكرتها بحرية مطلقة ومنضبطة، ناهيك عن أنها تخدم صلاح الناس وإصلاحهم ولا تخدم الفرد على حساب غيره من الناس، بخلاف ما يحصل في مناحي الإتباع والعبادات الأخرى التي ذكرت.

أما إذا عمي قلب أحدهم عن تلك العقيدة المشمسة النيرة، فلينظر إلى الإثباتات التاريخية، والحضارة التي صنعتها على مرِّ اثني عشر قرنًا من الزمان، وقد كانت أطول حضارة عرفها التاريخ البشري، وساد لها كل العقلاء والحمير على حد السواء.

لا يعني استمرار تلك الحضارة لتلك القرون إلا لأنها أغشت كل من خضع للوائها للحرية من عبودية الناس والحكام والقياصرة والملوك وأتباعهم، فأغشتهم بالعدل والرحمة والحب والغنى، وأغشت أهلها بالتراحم والتآخي والتواد والتواؤم والتعارف والتسالم والترابط، فكان الناس كلهم قائمين على تلك العقيدة، وعلى النظام المنبثق منها، وقائمين على نشرها، وخدمتها بما يليق بها، وكذا قائمين على سيادتها بالرغم من كل العداء المنظم والمستحكم والمسلط عليها وعلى من يحملها.
فهل تستوي عبادة النفس والهوى، أو عبادة العباد، مع عبادة رب العباد؟

قال حماري:

أفٍ لك سيدي وما تقول وأفٍّ لإطالتك، فأنا لم أرد أن أسمع ذلك كله، حتى أني ما زلت لا أفهم كثيرًا مما تقول، فهل عدت إلى الحديث عن حرية الرأي والعقيدة بما يمليه عليك نظام الإسلام؟

لقد صدق حماري، فقد أطلت، ولكن أجد نفسي لا أطيل في الحديث إلا على قدر جهل حماري، ولا يسد جهله والحمير الآخرين أضعاف أضعاف ما قلت، ولقد تفاقم جهلهم لجهل بعلم قد جهلوه، وأصبح جهلهم ظلمات فوق ظلمات، ركب بعضها بعضًا.

ولن تُزال الظلمات دفعة واحدة، بل تُزال واحدة تلو الأخرى، ولن يتحقق ذلك إلا إذا أفسح المجال للمبدأ الإسلامي بالانتشار، وبالجدال والدراسة، والدعوة المكثفة الدؤوبة الغير منقطعة، حتى يصبح المبدأ كالشمس التي تضيء لكل المخلوقات، للراضي منهم والرافض، للصغير منهم والكبير، للمرأة منهم والرجل.

ويخطئ من يظن أن دعوة المبدأ تنتشر بقراءة الكتب والنشرات، بل لن تكون حقيقية ومؤثرة ومغيّرة إلا إذا كان لها واقع تلمسه الأيدي، وتبصره الأبصار، وتذوق حلاوته العقول والبطون والأرواح، هذا الواقع لو رآه حماري كما رآه أجداده العقلاء، لما احتجت لأن أتحدث إليه بشيء عنه ولما جادلني وأكثر جدالي.

ولن يكون لذلك المبدأ واقع إلا إذا عمل على إيجاده العقلاء، ولن يوجدوه إلا إذا أحسن ثلة منهم فهمه ودراسته، وطريقة إيجاده، وكذلك لن يوجده هؤلاء إلا إذا كان هذا المبدأ مطلبًا حقيقيًا للناس بتطبيقه فيهم.

قلت لحماري:

ألم أقل لك بأنه يجب عليك أن تفهم أشياءً أحدثك عنها حتى تعي أخرى؟ فعسى أن تكون قد فهمت ولو شيئًا يسيرًا، علك تعي ما سأقوله لك عن حرية الرأي.

أما عن حرية الرأي فإن الإسلام لا يقبل الظلم بأي صورة من الصور، لا يقبله بين الناس على مختلف أعمارهم ودرجاتهم ومواطنهم، ولذلك فإن من الرأي ما أوجب الإسلام قوله إلزامًا، بل ويعاقب تاركه في حالات.

ومن الرأي ما أندبه الإسلام ومن الرأي ما كرِهه للناس، ومن الرأي ما حرّمه على الناس ومن الرأي ما أباحه الإسلام.

أما الرأي الذي ألزم الله الناس به فهو الذي يُوظف عند حدوث المنكر الذي يُظلم الناس فيه، أي في إنكار المنكر، كالإنكار على ظلم الحكام، أو الإنكار على ظلم الناس بعضهم بعضًا، أو عند مخالفة أحد الناس أو الحكام لأحكام الله بالإتباع أو الانتهاء، أو عند رؤية أي منكر لا يتعين على أحدهم تغييره بيده.

أما الرأي الذي أندبه الإسلام، أي الذي يثيب الله فاعله ولا يعاقِب تاركه، فهو الرأي المندوب قوله أو فعله، والذي يُوظف في أحوال ليس فيها منكر يستوجب تغييره، وإنما في أحوال تربوية أو عند قول النصيحة أو القول الحسن عند الخصومات وما شابههم من أفعال ومواقف.

أما الرأي المحرم على العبد قوله فهو القول الفاحش، أو الرأي الداعي إلى الظلم أو إلى الفتنة، أو قول السوء، أو قول غير الحق، أو قول النميمة أو الغيبة، أو الرأي الداعي لسوء الظن، أو كل رأي يدعو لمخالفة أمر الله أو الكفر به، أو أن يدعو الإنسان لفعل منهي عنه، أو شهادة الزور.

أما الرأي الذي كرهه الإسلام على العبد فهو الرأي الذي يتدخل الإنسان به فيما لا يعنيه، وكالنصيحة لغير طالبها، أو النصيحة في غير موضعها، أو الأحاديث في غير موضعها أو التكلف بالحديث (أي الحديث بما لا ينفع الناس أو الحديث فيما لا يفقهه الناس) وغيره كثير.

وأما الرأي الذي أباحه الإسلام، فهو الذي ينطوي تحت رداء الدنيا وأحوالها وقضاء الحاجات فيها، وفي فنون الزراعة والصناعة والإدارة، والمسامرات المباحة وغيرها.

بل إن الإسلام يحرم على الإنسان كتمان القول بالحق وتبيانه وشهادة الحق، وكتمان الدعوة إلى الحق وإلى أمر الله ونهيه.

هذا يا حماري عن حرية الرأي كما يراها الإسلام، وكما ترى فإنها أوسع وأشمل وأنفع وأبر وأخير من حرية الرأي التي يدعو إليها الحمير الصفر، التي لا تؤدي إلا إلى الفساد والفجور والسفور، ولأن تكون كلمة الهوى هي العليا وكلمة الله هي السفلى (جل الله وعلا).

قال حماري:

وا عجبي لما تقول، فأين نحن من ذلك؟ فأنا لا أرى أننا من ذلك في شيء.

قلت:

وهل أبقاكم حميرًا إلا ذاك وتركه، وإتباع غيره؟!.



حماري و حرية العقيدة

قال حماري:

إذن فقل لي عن حرية العقيدة، فيقال إن المبدأ الإسلامي يجبر الناس على عقيدته إجبارًا بحد السيف، ولولا السيف لما انتشر الإسلام، وهذا السبب نفسه الذي دعى الناس لأن يرتدوا عن الإسلام فيما بعد.

سؤال حماري هذا ليس غريبًا، فالإعلام الذي يمسك بزمام أمره الحمير الصفر قد صنع تصورًا معينًا عن الإسلام، وعن مبدأ الإسلام وفكره، حتى عند الحمير السمر، هذا التصور ذاته يُلمس فيه خبث ومكر عظيم، وعداء لهذا المبدأ الطاهر.

أما كيف تبنّى الحمير السمر نفس هذا التحريف، فذلك يفتح آفاقا واسعة من الأسئلة والتساؤلات.

إن من المصائب التي وقع فيها شعوب الحمير الصفر أنهم اتبعوا ما أملاه عليهم زعماؤهم من تصورات عن المبادئ المختلفة، وعن الشعوب والحضارات الأخرى، فترى كل واحد من هؤلاء الزعماء ينقل إلى شعبه تصورات خاطئة عن أي فكر خارج حدودهم، حتى يخلي نفوس الناس وعقولهم من أي اتجاه فكري قد يضر بتوجه الناس وانتمائهم للمبدأ الرأسمالي، لأن ذلك قد يضر بوحدة الدولة التي يعيشون داخل حدودها.

بل ولم يكتفوا بذلك، بل خرجوا بخبثهم خارج حدودهم، للبلدان التي تحمل فكرًا مغايرًا لفكرهم، فعملوا بقوة الإعلام وسلطانه في تغيير فكر شعوب البلدان الأخرى، موهمين إياهم بأن الحمير الصفر هم سادة الأرض وهم قادتها وأصحاب الفكر القويم الراقي الذي يُنهض بالأمم.

وبالفعل قد نجحوا وأوجدوا فيهم ومنهم حميرًا مثقفين يتغنون ويتباهون بمبدأ الحمير الصفر وبفكرهم، فترك هؤلاء المثقفون مبدأهم الأصلي وفكرهم وراء ظهورهم متبعين الفكر الرأسمالي والديمقراطي الذي قد غزاهم به الحمير الصفر.

أعان على هذا الغزو السهل حقيقة أن الحمير السمر أنفسهم جهلوا مبدأهم أساسًا، وجفَوْه فجفاهم، حتى أصبحوا يتبنون كل فكرة تُملى عليهم من المبادئ الأخرى، وبذلك أمكن للخائنين أن يُوضعوا في الإسلام ما يشاءون، وما كان لهم أن ينجحوا في ذلك لو كان للحمير السمر حامٍ أو نصير.

أعود لحماري ولما سأل، فالقول الذي يردده الأعداء وجرى على لسانه هو كذلك، أن الإسلام انتشر بحد السيف، قول فيه من الخبث والدهاء ما يدفع سامعه للتصديق به، فهو قول قد يُظن في ظاهره بصدقه.

قلت لحماري:

إن الجيوش الإسلامية في الحقيقة لم تتحرك ولم تنتشر في العالم تحمل صحفًا أو نشرات مكتوبة أو كتبًا، تحملها إلى الناس تعرفهم فيها بالإسلام، ولم تحمل الجيوش الإسلامية إليهم الوعاظ ورجال الدين، بل زحفت بكل ما أمكن لها من قوة السلاح والرجال في مظهر مهيب ورهيب إلى كافة أنحاء العالم، ولم يكن مظهرهم وديعًا أو ذليلاً يستجدون الناس السلام.

وعلى الرغم من ذلك فهم لم يرفعوا السيوف فوق رؤوس الناس (أفرادًا كانوا أم جماعات) ليقهروهم على الإسلام أو ليخيروهم بينه وبين القتل، بل إن موضع الأمر في الجهاد كان إزاحة الملوك والقياصرة الحكام، المستعبدين للناس والذين يحولون بينهم وبين الإسلام والدعوة والخير.

فأزاحت الجيوش الإسلامية أولئك الحكام الظالمين وطبقوا الإسلام كنظام دولة يسوس الناس في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، وفي جميع جوانب الحياة الأخرى، دون أن يجبروا أحدًا على الدخول في الإسلام ويغير عقيدته.

أي أن الجيوش الإسلامية والفتوحات أزاحت الحاجز الذي يحول بين الدين وفهمه ودراسته، بل والعيش به، والتعامل على أساس فكرته ونظامه، في سبيل إرضاء الله سبحانه وتعالى، ولتكون العبودية لله وحده دون القياصرة والملوك والأمراء الذين يحكمون بأهوائهم ومن أجل مصالحهم وسلطانهم، وهذا هو المنهج الجهادي في نشر الإسلام.

وما قد حصل أن الناس عندما تعرفوا على الإسلام من خلال أحكامه وشرعه، ومن خلال الحياة الإسلامية الراقية التي صنعوها عندهم بعد الفتح، دخلوا فيه أفواجًا برضاهم وبمحض إرادتهم وبكل عزيمة وصدق، فقد رأى الناس شيئًا عجبًا لم يسبق أن رأوه من قبل أو مثله، ولا رآه آباؤهم، ولا أجدادهم.

ولا يخفى على عاقل ما قد سبق الفتح وقتال المتسلطين على رقاب الناس، أن عرضوا عليهم أن يَحكم أهل البلاد أنفسهم بالإسلام، أو أن يدفعوا الجزية ليكون للناس القدرة والفرصة والوقت ليتعرفوا على الإسلام، وإن أبوا فالقتال.

هذا ولم ينقل التاريخ ولا المؤرخون خبرًا واحدًا فيه أن قد ضُرب عنق أحدهم أو عُنّف ليجبر على الإسلام أو الدخول فيه.

وهكذا دخل الناس جميعًا في الدين الإسلامي عن بينة وبرهان، وبعد الحصول على البراهين العقلية لفكر الإسلام وعقيدته.

ولا يخفى على المتبجحين من الحمير الصفر أو غيرهم، الذين يُلصقون تُهم الهمجية أو الإرهاب بالإسلام، أنهم هم الذين قاموا قبل مجيء الإسلام وبعد مجيئه بغزو البلدان الأخرى واحتلالها، وإرهابها، ونهب ثرواتها، وتدمير بنيتها الأساسية، وتخريبها لتسود لهم.

ولم يفعل الحمير الصفر كما فعل المسلمون الفاتحون بتحرير رقاب الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، بل لتحرير رقاب الناس من عبادة الله، أو من عبادة ملوكهم

"كما حصل في العراق" إلى عبادتهم هم، ليجعلوا تلك البلدان مرتعًا خصبًا للنهب والسلب، والإغتصاب والقرصنة، وليجعلوا شعوبها عبيدًا، لا يأكلون إلا مما تقدمه أيدي عدوهم، ولا يلبسون إلا ما يلبسونهم، ولا يصنعون إلا ما يصنعونه لهم، ولا يدرسون إلا ثقافتهم، ولا يطلبون العلم إلا من مناهلهم.

بخلاف المسلمين الذين فتحوا البلدان، فأعزوا أهلها، وحرروهم من ذلّ عبادة الملوك والقياصرة، وأعانوهم على الدنيا وعلى أنفسهم، وأعانوهم على عمارة البلاد، ومحاربة الفقر والظلم، وعلى نشر العدل السماوي، فتركوا الناس يعبدون ما يشاءون مختارين، كما تملي عليهم الفطرة والعقل السليم، فكان أن دخل الناس في الإسلام راغبين طائعين.

ولم يكن الولاة والخلفاء عدوًا مسلطًا على الناس، وإنما كانوا رحمة للناس بحكم الله وأمره على المسلمين أنفسهم كما هو على غيرهم من الناس على حد السواء.

أي أن المسلمين الفاتحين لم يستعبدوا الناس ولرقابهم وأموالهم ولم ينهبوا البلاد والعباد، ولم يعطوا هذا ولم يحرموا ذاك، ولم يظلموا الضعيف ولم يكرموا القوي دونه.

قال حماري:

كأنك تحدثني عن إسلام جديد.

قلت:

ولم ذاك؟

قال:

لأني لم أسمع بمثل ما قلت قط، لا في التلفاز ولا في الراديو، ولم يقل به أحد من الحمير المثقفين.

قلت لحماري:

أو هل ذاك إلا للإبقاء عليكم حميرًا؟.

إيه يا حماري عزانا وعزاكم فيما تبقى من الكتب الصادقة التي لا يقرأها الحمير، والتي لن تغير من الأمر شيئًا.

فقال حماري وهو يتلمس يأسًا في عينيّ:

أوَ لم أقل لك يا سيدي دعك مما تفكر وتقول، فلن ينفعك ذلك شيئًا، ثم ألم تقل لي إن هؤلاء الحمير الصفر الأقوياء أعداء لنا؟

وأن الجهاد وحمل الإسلام إليهم بالفتح الإسلامي سينقذ شعوبهم وينهض بهم وببلادهم، وقد ينفعهم هم قبل أن ينفع المسلمين أنفسهم، كون أن بلدانهم ناهضة؟

فلمَ إذن يفتدي المسلمون أنفسهم وأموالهم وأبناءهم وأرواحهم في سبيل نفع الكافرين، كما تقول؟ ولمَ تريد أن تجبر الناس على الخير وهم له كارهون؟.

قلت لحماري:

لست أنا الذي يريد أن يحمل الإسلام إلى شعوب العدو، بل الله، هو الذي أراد وفرض علينا نحن المسلمين نشر الإسلام، وحمله رحمة وهدى للناس أجمعين، كانوا أعداء محاربين ، أم أعداء مسالمين.

ولكن مهلاً يا حماري، من قال لك إن شعوب الأعداء كارهون للإسلام والرحمة، وللعدل والحياة الراقية والرقيّ؟

قد يكون كثير من الحمير الصفر وكثير من الحمير السمر اليوم قد أصبحوا كارهين للإسلام، لأنهم لم يتعرفوا عليه أصلاً، ناهيك عن التشويه، فالكتب لا تعطي إلا تصوراً ذهنيًا عن الإسلام وعن أنظمته، ولكن لا تصوره بحقيقته عند تطبيقه في الواقع وفي حياة الناس والشعوب والأمة، ولا تصور حقيقة حضارته ونهضته، فليس من رأى كمن سمع، وليس من لمس كمن تخيل.

ولقد كانت الشعوب دومًا تستبشر خيرًا بجيوش المسلمين الفاتحين القادمين، لِمَا كانوا يشاهدونه من حضارة بلغت أعالي السماء في بلاد المسلمين، وفي البلدان التي قاموا بفتحها، بل كانت فرق من غير المسلمين تعين جيوش المسلمين لفتح بلدانهم أنفسهم.

فلم يكن يقف في وجه تلك الجيوش الفاتحة من دون الناس إلا أصحاب السلطان وأعوانهم وحزبهم وعسكرهم والجهلاء من الناس، والمكابرون على الحق منهم.

أما الحكمة من حمل الإسلام بالقتال والجهاد في سبيل الله؟، فذلك علمه عند الله أساسًا، حتى ولو علمنا بعض حكمته من القرآن الكريم، أو بينه لنا حبيبنا المصطفى في سنته الشريفة، أو من جانب نجاعته السياسية والعسكرية والإستراتيجية.

إلا أننا قد رأينا كيف تحولت الشعوب والقبائل إلى أمة واحدة من خلال الفتح الإسلامي، وإلى أصحاب هوية واحدة، وكيف تم إنقاذ الشعوب من الظلم والفساد والاقتتال والاعتداء، ومن الفقر والجهل، وكيف تحققت نهضة راقية في جميع جوانب الحياة، وكيف عاش الناس أحرارًا من عبادة العباد والأنظمة الدنيا، عاشوا في عزة وكرامة وسيادة على أنفسهم وأموالهم وأملاكهم.

فبالفتح الإسلامي ساد ويسود الخير الذي أراده الله للأرض والناس، رغم أنوف المتسلطين والظالمين والمتكبرين، وهكذا كان.

ثم إن الجهاد وحمل الإسلام إلى غير المسلمين، فيه حماية لبيضة الإسلام وللمسلمين وحماية لبلدانهم، إلى ما هناك مما لا يعد ولا يحصى من الحِكم ومن خير ورحمة للمسلمين والناس أجمعين.

أما الحروب الهمجية فهي تلك التي يقوم بها الحمير الصفر وغيرهم في حق الشعوب والأمم الأخرى.

وأما الجهاد والإسلام فليس هو دين النساء، وتعدد الزوجات كما يفهمه ذكور الحمير الصفر، وكثير من الحمير السمر، وليس هو دين قهر النساء وضربهم وظلمهم كما

يفهمه إناث الحمير الصفر، وكثير من إناث الحمير السمر، وليس هو دين الاعتكاف في المساجد كما يفهمه المستسلمون العامون عن حقيقة الإسلام وتشريعه.

وليس دين الإسلام دين الصلاة والصيام والزكاة والحج مسلوخًا من حاكمية الله وتشريعه، وسنة رسوله كما يفهمه المُضللون والمغفلون.



أنـــا و الحمير الأثرياء

كنت يومًا ما في أحد البلدان الغربية في أحد الشوارع واقفًا، وكنت أتقصد الحديث إلى الحمير السمر في تلك البلاد أحدثهم وأدعوهم لفكرتي، فمرّ بي مجموعة من الحمير السمر الأثرياء، ودار بيني وبينهم حديث وجدال، فأخذت أحادثهم عن الفكر الراقي الذي ينقل الحمير السمر والصفر إلى عقلاء.

وأخذت أحدثهم مسهبًا في الحديث عن الحمير السمر، وكيف أصبحوا حميرًا، وكيف بإمكانهم أن يصبحوا عقلاء، وكيف يبلغ الحمير السمر خاصة حياة راقية تنهضهم وترقى بهم، وقد كانت أعينهم ترمقني بنظرات لم أدرك معناها في حينها، ثم تلى تلك النظرات إنكار لين على ما أقول، ثم تبع هذا الإنكار بعد حين إنكار عنيف وهجوم شرس ضدي، وسبابٌ ولعان كاد أن يصل إلى الضرب بالأيدي والرفس بالحوافر، ولكن الله سلم، وحينها أدركت ما كانت تتحدث به عيونهم وترمقني به نظراتهم في أول الأمر... وأدركت أن ما أغضب هؤلاء الحمير الأثرياء أنهم كانوا يرون في أنفسهم أنهم هم العقلاء، وأن الكون كله من حولهم من الناس بما فيهم شخصي أنهم أولئك الحمير.

وقد كانوا ظانين أو متيقنين كذلك أن الحياة الراقية التي تحدثت عنها معهم هي تلك التي يعيشونها دون غيرهم، ويظنون أن ما كنت أتحدث عنه إنما هي تلك الحياة الموجودة المتمثلة عندهم في بلدانهم، وليس هناك ضرورة لدعوتهم إليها، بحكم وجودها عندهم، وهم في غنى عن تلك الدعوة، وكفى.

ويا ليت ما كنت أدعو له من الحياة الراقية كانت أو هي موجودة عندهم، أو كانت متمثلة في أخلاقهم وصناعاتهم وقوة دولتهم، أو يا ليتها موجودة في أي بقاع الأرض على الإطلاق، لكنتُ أرحت نفسي وغيري، ولما عنيت وتعبت، ولما كنت قد تحدثت معهم عنها أساسًا إلا للاستئناس بذكرها.

الغريب في الأمر أن صفات الحمير الأصيلة كانت متمثلة في هؤلاء وفي أخلاقهم، وفي نهضة بلدانهم، ولم يحصل أن قد رأيتها متأصلة عند حمير غيرهم كتأصلها فيهم.

تركت هؤلاء وانسحبت من مكاني غضبان أسفًا لما رأيت وما نلت، وطفقت أحادث نفسي أبحث لها عن عزاء أعزيها به، فمشهد كالذي رأيت لم أواجهه من قبل، وعدت أتذكر حماري المسكين، وأتمتع بذكراه، فهو الذي كان يصبر على كل ما أقوله له ويتصبر عليه بالمجاملة تارة، وبالانفعال اللطيف تارة أخرى، وأغضب ويغضب هو أحيانا، فنعود فنمسح ما ألمّ بنا ببعض الأحاديث المؤنسة، ورحت أرى في حماري كل خبيثٍ جميلاً وحسنًا، وأذكر إساءته وألتمس لها عذرًا.

إن الكرام إذا صحبتهمُ   ستروا القبيح وأظهروا الحسن

وأنا في غمي هذا وحزني، وإذا بي ببعض المتعقّلين ينادونني من خلفي ويستوقفونني، وقد كانوا ممن يشاهدونني وأنا أحدث أولئك النفر الأثرياء، فقالوا لي:

- يا ذاك، يا ذاك، لقد رأيناك وأنت تتحدث إلى أولئك النفر من الحمير الأثرياء عن الفكر الراقي والحياة الراقية والنهضة.

قلت لهم وكأني فرحت بمواسيًا ألقاه فيواسيني، وقد فعل:

نعم، نعم

فقالوا:

أو لم تجد غير تلك الفئة من الناس الأثرياء تحدثهم؟ أو لا تعلم أنهم شبعى البطون، ملأى الجفون، قُر العيون، يعيشون في قصور عاجية، لهم أبصار لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولا يعقلون شيئًا.

إن شئت، فحدث الفقراء منهم، فقد تسعدهم أحاديثك التي في طياتها آمالٌ تنقذهم من حالهم وتنجيهم من كربهم.

فقلت لهم شاكرًا إياهم، وقد بلغ مني العزاء نفسي، ولفت نظري لهذا الواقع الحقيقي:

ولكني أدعو كما علمني الله دون استثناء غني أو فقير.

قالوا لي:

هذا شأنك،، وانصرفوا

انصرفوا وانصرفتُ أنا عائدًا أحدث نفسي، وقد استدركت أني أقف أمام عدة أصناف من الحمير وخاصة الحمير السمر، الحمير الأثرياء، فالحمير الفقراء وغيرهم من الضعفاء ومتوسطي الحال، وغيرهم من الجهلاء، وهؤلاء جميعهم غالبًا ما يقرون بحميرتهم، ويستمعون على الأقل إن لم ينصتوا.

أما الحمير المثقفين والحمير العلماء وذوي الشهادات العليا، فهؤلاء قد أصابهم كِبَرٌ يمنعهم من الحديث إلا لمن هم يحملون شهادات تضاهي شهاداتهم، حتى ولو كانت في علم الموسيقى.

أما الحمير الأثرياء، فقد أصابهم مكابرة وشمَم، إن تحدثوا لأحد فلا يقبلون بأقل من أن يكونوا هم المتحدثين، ويعز عليهم كثيرًا أن يجادلهم من يكون أقوى منهم حجة وأمضى رأيًا، وهؤلاء لا يستمعون ولا يصغون ولا ينصتون،، فلا يتخذون ممن حولهم من الحمير أو من العقلاء إلا آذانا صاغية لهم.

أما إذا ما شعر أحدهم بالنقص الفكري، تجد كل واحد منهم يتباهى بما عنده من أموال أو أملاك أو عضلات، فتجد الجهلاء منهم مثلاً يتباهون بقوة عضلاتهم وقواهم الجسدية، وتجد الحمير المثقفين والعلماء منهم وأشباههم يتباهون بصولاتهم وجولاتهم في مجال أعمالهم ونجاحاتهم وإبداعاتهم فيها، أو بلغات أجنبية يتقنون فنها، أو يتشدقون بأحاديث متكلفة لا يفهمها غيرهم ممن حولهم.

أما الحمير الأثرياء فمواطن التباهي عندهم كثيرة، أبرزها التباهي بالممتلكات من البيوت والعقارات والسيارات، والتباهي بالمشاريع التجارية وبالأعمال التنافسية، والتباهي بالانتماء للمجتمعات البرجوازية التي يغشَوْن منتدياتها والإفراط في الحديث عنها، وحدث في هذه الجوانب ولا حرج.

وليست هذه الانحرافات السلوكية في الحمير مما ذكرت إلا جزء يسير من انحرافات سلوكية عديدة في علاقاتهم الفردية أو الاجتماعية، حيث أن هناك تباين عجيب بين سلوك أثريائهم وسلوك فقرائهم، وبين سلوك شبابهم وشيبهم وبين سلوك نسائهم ورجالهم، وبين رجل وآخر، وبين قوم وآخرين، بالرغم من انتمائهم لأرض واحدة وموطن واحد.

فبالرغم من انتمائهم إلى مجتمع واحد أو إلى قرية واحدة، أو حتى لأسرة واحدة، نجد أن هناك تباينًا كبيرًا بين أفكارهم ومفاهيمهم وسلوكياتهم، فعلى سبيل المثال للحصر نجد عند بعض الحمير غيرة مفرطة على أعراضهم بالرغم من انحرافاتهم الجنسية المختلفة مع نساء آخرين، ونجد آخرين منهم عنده دياثة مفرطة في شأن أعراضهم، وآخرين بين هذا وذاك في المدينة الواحدة والقرية الواحدة والأسرة الواحدة.

أو نجد الروابط الأسرية عند بعض الحمير السمر أو الصفر قوية إلى حد التكتل، ونجدها عند بعضهم الآخر منحلة إلى حد التفرق، ونجدها عند غيرهم بين هذه وتلك.

ويا لهول التباين والاختلاف في قواعد التربية وأفكارها بين شخص وآخر، وأسرة وأخرى، وقوم وقوم. وهول التباين والاختلاف والتناقض في العلاقات الشخصية والزوجية وعند تبادل المصالح وإبرام العقود والشراكات والعهود، وعلاقات الزواج والطلاق وتبادل الحقوق.

كل تلك العلاقات نجدها متباينة ومختلفة ومتناقضة من أفراد لآخرين، ومجموعات وأخرى، بدرجة مثيرة وملفتة للنظر.

ولا بد لذلك من معرفة الأسباب وراء ذلك التباين والاختلاف في التركيب الاجتماعي والتربوي بتلك الصورة المضطربة والمتعددة، ومعرفة العوامل الخفية وراء هذه التركيبة.

ولست هنا في خدمة التنظير الاجتماعي أو الفلسفة، بل المهم عندي هو تغيير الحمير وتغيير واقع الحمير بصدق، لذا فلا بد لي من ربط هذه السلوكيات والأعراف والتقاليد المخلبطة بالفكر الأساسي الذي صنع تلك المفاهيم والسلوكيات والعلاقات عندهم، فإذا ما علمت ذلك وعالجته أكون قد عالجت الأسباب التي دفعتهم للارتضاء بذلك الفكر والعيش به.

فبصفتي من العقلاء، وليس بصفتي من الحمير العلماء أو المثقفين أو المفكرين منهم، وجب عليّ تغيير ذلك الفكر الأساسي عندهم بحسب الفكر الصحيح الذي أؤمن بصحته وصدقه وأحمله، والذي أسميه فكر العقلاء.

أما كيفية تغيير ذلك الفكر الأساسي إلى فكر آخر، فتلك هي المعضلة الكبرى التي يجب أن يعيها العقلاء أولاً. فالإخلاص وحده لا يكفي دون فهم الواقع ودراسته وفهم الأسس التي قام عليها، ومعرفة الأسباب وراء تبني هذا الفكر أو ذاك.

ولا تكفي الإحاطة بالمبدأ الذي يراد التغيير إليه في عملية التغيير، بل لا بد لمن أراد تغيير غيره لمبدأ ما، أن يكون صاحب التغيير نفسه تتمثل فيه صورة المبدأ

الذي يراد التغيير إليه عقديًا وسلوكيًا، ولن يكفي ذلك كله إذا ما اكتملت هذه الصورة في صاحب التغيير، بل لا بد لصاحب التغيير معرفة الكيفية الصحيحة لعملية التغيير.

ولو نظرنا إلى أي مجتمع من المجتمعات الدنيا لا نجده مجتمعًا سويًّا حتى يرتبط أفراده بأنظمة يسير بها أفراده جميعهم بها، بغض النظر هنا عن صلاحية هذه الأنظمة أو فسادها.

وبطبيعة أي نظام كوني فلا بد أن ترتبط هذه الأنظمة ارتباطًا لا ينفك بفكر أساسي عقدي، كالإيمان بالله والحاكمية له، أو كالإيمان بالمصلحة والحاكمية لها.

بهذه الأنظمة مقيدةً بفكرها الأساسي تنشأ أفكارٌ يتعارف عليها الناس، وتصدقها مشاعرهم، وتنصهر لتصبح أعرافًا يفرحون بقوامها ويغضبون لعدمها، حتى يعتادون عليها قائمة، ثم لا تسير الحياة إلا بحسبها، حتى تكون هي عاداتهم، ويتقلدونها، ويقلد صغيرُهم كبيرَهم فيها لتكون هي تقاليدهم، ثم يسمى هذا المجتمع باسم عقيدته ونظامه مجتمعين، وموصوف بأعرافه وبعاداته وتقاليده.

وعلى هذا فلا نستطيع تسمية مجتمع الحمير الصفر مجتمعًا نصرانيًا أو مسيحيًا، بالرغم من ادعائهم اعتناق الدين النصراني، لأن النظام الذين يسيرون به لا ينبثق أصلاً من العقيدة النصرانية، وإنما هو منبثق من "العقيدة المصلحية"، على أي حال لا يوجد في الدين النصراني نظام منبثق من عقيدتهم، ولا نستطيع أن نسمي أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم نصرانية، بل هي رأسمالية.

وعلى نفس المقياس لا نستطيع تسمية مجتمع الحمير السمر مجتمعًا إسلاميًا، بالرغم من إقرارهم بوجود الله، وبإقرارهم أن محمدًا رسول الله، وبالرغم من أنهم يصلون ويصومون، والسبب في ذلك أنهم اكتفوا بمسألة الإقرار ولم يقوموا بما يترتب على هذا الإقرار من اتباع للنظام المنبثق من هذا الإقرار ومن هذه

العقيدة، وإنما تنبثق أنظمتهم من عقيدة أخرى مخالفة إطلاقا للعقيدة التي يحملونها وهي العقيدة المصلحية الرأسمالية.

ولا يُسمى كذلك المجتمع الذي يتخذ نظام الإسلام نظامًا لحياته دون عقيدة الإسلام، لا نسميه مجتمعًا إسلاميًا، بالرغم من أن هذا مجرد افتراض جدلي ليس له واقع حقيقي، وقد رأينا كيف اتخذت أوروبا أحكامًا كثيرة اجتماعية وإدارية وسياسية وقضائية من نظام الإسلام وقامت بتطبيقها، ولكن هذا الواقع لم يغير من واقعهم الرأسمالي شيئًا ولم يحولهم إلى عقلاء، ولم يغير مجتمعهم الرأسمالي إلى مجتمع إسلامي.

فالعادات والتقاليد والأعراف، أو الأنظمة والمقاييس والقناعات لا يمكن لها بطبيعة الحال أن تصبح إسلامية البتة إذا افتقدت أحد الشرطين التاليين:

عقيدة، ونظام ينبثق من هذه العقيدة.

وإذا وضعنا مجتمع الحمير الصفر تحت المجهر، لوجدنا أن العقيدة النصرانية عندهم متبناة كنظرية أو كرأي فقط، يرجع إليها الفرد وقت الأزمات والملمات النفسية، وكذا عند حاجته كرجع غريزي إلى تقديس ما هو فوق كل الأزمات.

وتبقى عقيدة الحمير الصفر (العقيدة النفعية) هي العقيدة التي يؤمنون بها حقًا، وتسمى بالعقيدة الرأسمالية، وهي التي ينبثق عنها نظامهم وتتشكل بها حياتهم، وهي التي ارتضوها، وأقروها، ولم يعترفوا بسواها، فهي صلب حياتهم وعمادها. وهي التي تصنع لهم عاداتهم وتقاليدهم والأعراف التي يتعارفون بحسبها، وهي التي تقوم عليها نهضتهم الصناعية والعسكرية والتجارية والعسكرية وغيرها، وتقوم عليها علاقاتهم بأنفسهم وبغيرهم من الشعوب والأمم.

فلا يعجب راءٍ للحمير الصفر وهم يستمتع بعضهم ببعض جنسيًا لغرض الجنس، ويصرحون بذلك لا يرون في ذلك بأسًا ولا عيبًا، نزولاً إلى درك الحيوان.

ولا يعجب راءٍ للحمير الصفر كيف يعامل الزوج زوجه معاملة نفعية ويحاسبها على النفقة، ويمنّ عليها بذلك وعلى أبنائه بها، وبما يوفره لهم من سكنى، وهم يقرون بهذه المنة، وأنها فضل منه عليهم، له الحق أن يرفعها عنهم وقتما يشاء.

فهذه السلوكيات لا تنضوي عندهم تحت لائحة المذمومات من الأعمال وفي العلاقات، وإنما هي سير طبيعي متعارف عليه بينهم.

ولا نعجب مما قد نراه أحيانا من أعمال خلقية كريمة في العطاء أو البذل أو في حسن التعامل عند الحمير الصفر خاصة، فهي أعمال تنطلق من وراء الشبع والرفاهية والراحة المفرطة، يطلقها الحمير الصفر وقت كفايتهم وشبعهم، ويمسكونها عندما تُعارض مصالحهم أو عند الكوارث، فأصل أعمالهم هي أعمال أنانية ومتوحشة وإجرامية، بعيدة عن الرحمة والحب وحسن الخلق.

أما إذا نظرنا إلى مجتمع الحمير السمر نظرة عميقة، لوجدناهم بأقليتهم يؤمنون بوجود الله إيمانًا حقًا صادقًا، ولوجدنا الباقين منهم تقف عقيدتهم عند التصديق فقط بوجود الله، لا إيمانا بوجود الله كما ينبغي.

ولكن هؤلاء وهؤلاء من المؤمنين والمصدقين، يحملون عن غير علم إيمانًا محرفًا عن حقيقته، وحقيقة فكره ومنهجه وواقعه. فعقيدة الإسلام لا تكون مكتملة تامة إلا إذا آمن الناس بالله ورسوله والقرآن، وما جاء به من الغيبيات، مقترنًا ذلك بالنظام الذي جاء في إطار هذه الرسالة إقترانَ الماء بالحياة، أي لا إسلام أو عقيدة إسلامية بدون نظام، أي بدون تشريع، وبدون تطبيق.

عندما جاء الاستعمار لم يستطع أن يهدم في الناس إلا نظام الإسلام الحاكم في واقعهم وكذا في نفوسهم، ولم يهدم في الناس إيمانهم بالله أو تصديقهم بوجوده ولم يقتلوهم عليه، فهذا يستحيل عليهم، وغالبا لم يحاربوا الناس على الشعائر التعبدية التي يقومون بها من صلاة أو صوم أو حج أو زكاة، فهي ليس لها تأثير سياسي فعلي.

ولذلك فقد انتزع الاستعمار من المسلمين من دينهم شرع الله ورسوله، أي انتزع الماء من الحياة، فأصبحوا أمواتًا، أو بمنظارنا هنا فقد انتزع حريتهم فأصبحوا عبيدًا لغير الله، أي حميرًا.

هذا الواقع لمجتمع الحمير السمر قد أنتج فكرًا أساسيًا جديدًا (عقيدة)، وهو الإيمان أو التصديق بوجود الله، ولكن مع انبثاق النظام من عقيدة أخرى هي العقيدة النفعية، ولذلك أصيب مجتمع الحمير السمر بنكسة عقلية ونفسية، فازدواجية شخصيّة مرعبة، مكنت من سوقهم حميرًا، ومن المحافظة عليهم حميرًا، وعلى مستوى عال من الحميرية.

فلم يعودوا هم الذين اعتنقوا العقيدة المصلحية بنظامها، وليست هي التي قررت لهم حياة فيها وحدةٌ فكرية وسلوكية يرتضونها مع هذه العقيدة وبها، وليسو هم الذين اتخذوا مبدأ الإسلام كاملاً بعقيدته ونظامه.

وبذلك تكونت عند مجتمع الحمير السمر عادات وتقاليد وأعراف مضطربة ومزدوجة ومتناقضة، أدت بدورها إلى التباين والتناقض والاختلاف في الفكر والسلوك من فرد لآخر، ومن أسرة لأخرى، ومن قوم لآخرين.

بل وأصبح مجتمع الحمير السمر أشبه ببرميل النفايات الذي يحتوي على أصناف عديدة غير متجانسة من المخلفات تزكم الأنوف.

وفي الجانب الآخر أصبح الحمير الصفر بوحدة عقيدتهم الضالة، ووحدة نظامهم، ووحدة فكرهم ينعمون نسبيًا بنهضة ورقي، وأمن وسلام نسبي.

فلا يعجب سامع لحمار أسمر وهو يقسم بالله كاذبًا،، ولا يعجب يسمعه يعاهد ويعد ثم يخالف ولا يفي بشيء،، ولا يعجب مستأمن لأحدهم قد أقسم على أمانته ثم يخون ما استؤمن عليه،، ولا يعجب ناظر لحمار اتخذ مظهر التقى والورع والعلم لتحقيق مصالحه،، ولا يعجب ناظر لفتيانهم وفتياتهم وهم يختلسون الفاحشة المنكرة لأنهم حُرموا منها بغياب نظام الإسلام،، ولا يعجب ينظر إليهم وقد بلغوا

أعلى درجات الحسد والبغض والظن السوء والنميمة ثم تراهم يصلون ويصومون،، ولا تعجب لأحدهم وهو يجاهر محاربة الإسلام لأنه لا يمتلك سبيلاً إلى المال غيره، ليعتاش كما يدعي هو وأبناؤه.

ولا تعجب لمن ينغمس منهم في الشعائر التعبدية والنوافل انغماسًا، ويترك مئات الآلاف من الأحكام معطلة، ولا يدعو لها، بل ولا يرى نفسه مسؤولاً عنها.

وآخرون يغالون في الدين لدرجة أنهم يكادون يحرّمون على أنفسهم الهواء والماء، وقد تركوا الدعوة إلى الشريعة.

ولا تعجب لأكثرهم يؤمنون بانتهاء الأجل، وفي نفس الوقت لا يؤمنون بالرزق من عند الله، أو القضاء والقدر، أو لا يعون مفهوم الهداية والتوكل على الله، أو أنهم يعرفون هذه الأفكار ولكن لا يعملون ماهيتها، ولم تتعود عقولهم على التعامل بها، أي أنها ليست هي عندهم مقياسًا للتعامل، والخلط هنا كثير.

ولا يعجب سامع لكثير من الحمير السمر وهم يتفاخرون بالأحساب والأنساب، ويجدها موضع اهتمامهم لا تتعداها.

ولا يعجب، ولا يعجب، ولا يعجب

ولكن ما هي الأسباب التي دفعت الحمير السمر للرضى بذلك الفكر وتبنيه، وبهذه الازدواجية؟

لو قلنا إنهم في عزة ومنَعَة وفي أوج الحياة الراقية وارتضوا ذلك الفكر، فقد أجحف في حقهم، ولو قلت أنهم أجبروا عليه إجبارًا فقد تكون هناك بعض المغالطة، ولو قلت أن مجرد إهمال المبدأ الإسلامي بعقيدته ونظامه أدى تلقائيًا إلى تحول المجتمع الإسلامي إلى غيره لكانت تلك مغالطة أخرى، ولكن الأمر معلوم أسبابه وتاريخه وقد أحاط به العقلاء خُبرا.

فالحقيقة أن التحول حصل من خلال الاحتمالات الثلاثة كلها مجتمعة. فهناك من الحمير من أعان بل وقاتل لهدم ذلك الصرح العظيم، خيانة عن علم، أو ارتزاقا، أو جهلاً، أو افتتانا بنهضة الحمير الصفر الصناعية.

لا ننكر أنه قد أعان على هذا الهدم منذ مائتي عام بعض أو كثير من الإهمال الإداري ورعاية شؤون الناس من قبل السلاطين على أواخر عهد الدولة الإسلامية، مما أعطى الحمير الصفر وزعماءهم الفرصة الفريدة لتكالبهم على البلاد الإسلامية شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا.

ثم ارتضى ذلك الواقع المهين الحمير السمر، ما عدا بعض العقلاء الغيورين الذين نهضوا ضد الاستعمار، فسكت أولئك وقعدوا عن الصراع، ثم ارتضوا القعود والراحة، ثم بدأت سلسلة الانتكاسات الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، ناهيك عن الانتكاسات الزراعية والصناعية والعلمية.

ولم يبق جانب من جوانب الحياة إلا وأصيب بنكسة، وأصبحوا حميرًا على مستوى عال من الانحطاط، حتى أن المشاكل الحديثة أصبحت مشاكل متراكمة ومعقدة، أي هي مشاكل لمشاكل منطلقة من مشاكل أساسية.

وبهذا أصبح طريق العودة صعبًا ومحفوفًا بالمخاطر، أو كاد يصبح مستحيلاً، فقد استولت عليه وحوش كثيرة غيروا من ملامحه، وزرعوه بالوحول والأشواك والألغام. فكان لا بد للعقلاء أن يطهروا الطريق ويزيلوا ويبعدوا كل ما وضع فيه، ويحاربوا الوحوش التي استولت عليه حتى يعود العالم من خلال هذا الطريق إلى الحياة الراقية العادلة.

ولقد قل العقلاء وكثر الحمير الأقوياء، بل وصاروا حميرًا ذوي أنياب ومخالب قوية وحادة. وازداد العمل صعوبة، وازداد التحدي تحديًا. وزاد الأمر تعقيدًا، حتى أنك لم تعد تجد بين الحمير السمر من يتصف بالصفات التى قد تُعزى مجازًا على

"الرجولة"، ككرم الطباع والصدق والأمانة وحفظ العهد والوعد والشهامة والغيرة والنخوة والنجدة، كبعض رجالات العرب قبل الإسلام.

ولكن أي رجولة تلك، إذا كان هؤلاء قد تركوا المبدأ الذي يصنع أكثر من تلك الصفات، وأكثر من تلك التي تُسمى الرجولة.

ولكن كما أسلفت آنفًا، فلا بد من الرجوع إلى المبدأ بعقيدته ونظامه، حتى يتسنى صنع الرجال العقلاء من جديد، وحتى تنهض الأمة كلها، رجالها ونساؤها، شبابها وشيوخها، أبناؤها وبناتها. وحتى تُصاغ العادات والتقاليد والأعراف حسب المبدأ، فتكون هناك وحدةٌ فكريةٌ عند جميع الناس، تتبعها وحدة سلوكية يسير بها المجتمع بمختلف عناصره سير رجل واحد، ويرون رأي رجل واحد، فيُنبذ من شذ، ويقوّم من نشز، وتُهدم كل النزعات القومية والوطنية المنحطة، فيلتفت الناس إلى النهضة في جميع جوانبها، تاركين وراءهم ما سفه عن بينة، وما سخف من الأمور عن بينة.

الوحدة الفكرية هي سلاح الأمم العظيم الذي لا يُهزم، وهي الطاقة المحركة، والقوة المكينة، وهي الدم في الجسم، والروح في الجسد، وهي الحصن الحصين الذي لا تنفذ من خلاله الريح والعواصف، وفي الوحدة الفكرية سكن الناس وأمنهم، وراحة بالهم وطمأنينتهم، وسلامة أنفسهم وعافيتهم، وهي الشمس الدافئة، والغيث المغيث.

فكلما قويت الوحدة الفكرية في أمة كانت أجدى لهم نفعًا وأعظم أثرًا، وخيرًا على دولتهم، وكانت رسالة لكل البشر أجمعين... وكلما غابت الوحدة الفكرية أو ضعفت كلما كانت وبالاً على أهلها، وشرًا مستطيرًا عليهم، وعلى دولتهم وحاضرهم ومستقبلهم، وكانوا مثالاً يُستعاذ منه من الفرقة والتفرق والتشتت.

ولذلك فإن درجة الوحدة الفكرية في أمة أو دولة مقياسٌ لقوة الفكر الذي يحملونه وصدقه وصحته، وصلاحه للإنسان، بل وللحيوان والأرض.

عدت إلى حماري بعد أن هضمت الصدمة التي صُدمتها مع أولئك الحمير الأثرياء، وقد كان عليّ فعلاً أن أتعرف على فئات حمير مختلفة، وأتعرف على عقلياتهم، وأتعرف على نفسياتهم، وقد تبين لي جليًا أن المال يزيد العقلاء رقيًا، ويزيد الحمير انخفاضًا، فعاقل ذو مال وقوة، خير من عاقل ضعيف. وحمار فقير أو ضعيف خير من حمار ذي مال وقوة.

ورأيت أن أجاهد الآن في حماري المتواضع المعترف سلفًا بحميرته وحميرة الباقين من الحمير، علني أنجح في ترقيته إلى عاقل، وعساني قد نجحت نوعًا ما، فلأواصل سيري معه بالرغم من الانهزام الفكري والنفسي، الذي يعاني منه هو وباقي الحمير، الانهزام الذي يشعرهم بأن لا فائدة ولا جدوى من تدارس أي مبدأ ناهيك عن مبدأ الإسلام، وأن إعادة مبدأ الإسلام كما كان في واقع الحياة هو من المستحيلات، إلا أن ينزل الله بنفسه (جل وعلا) ويعيده، إلى هذا الحد وصل الانهزام الفكري عند الحمير السمر.



حماري و السياسة والاقتصاد

تحدثت مع حماري وقصصت له ما حدث لي مع الحمير الأثرياء، وأخذ يقهقه ويضحك، وينظر إليّ مشفقًا عليّ وقال:

وما لك وما لهؤلاء؟ هؤلاء هم أدنى مستويات الحمير، نعم، إن هؤلاء الحمير الأثرياء هم أساس نكبتنا، إني أكرههم.

قلت:

وأي نكبة هذه يا حماري؟

قال متململاً :

هؤلاء هم الذين نهبوا أموالنا كلها وبقي الآخرون من الحمير فقراء، لا شيء عندهم.

قلت لحماري وأنا أحدث نفسي، فيما ينظر به الفقراء إلى الأغنياء منهم، وكيف يحقدون عليهم لاستئثارهم بالأموال دونهم، وكيف أنهم يصبون اهتمامهم على المال فقط، دون النظام الذي يجعل المال ينحاز إلى جيوب الأغنياء وحساباتهم البنكية:

ولكن الأثرياء لم ينهبوا أموال الفقراء، بل هم يقومون بالتجارة والصناعة وغيرها، والباب - كما يُقال - مفتوح ليصبح كل من يريد غنيًا.

وبعد بعض الجدال الذي تقصدته لأستثير التفكير عند حماري، وقد بينت له أن الفقر والغنى يصنعه عادة النظام الاقتصادي في المبدأ المتبنى قال حماري:

ما هي العلاقة إذن بين مبدأ الإسلام والفقر، إذا كانت بلادنا أو بلاد غيرنا فقيرة أساسًا؟

قلت لحماري:

إن البلاد التي تظن أنها فقيرة كمصر مثلاً، يشقها نهر عظيم من جنوبها إلى شمالها، والأخرى التي كانت سلة الغذاء للبلاد الإسلامية كالسودان، وغيرها التي لا تغيب عنها الأمطار على مدار العام، والتي جُلُّ أهلها يرزحون تحت فقر عظيم، ليست بلادًا فقيرة، بل أهلها هم الفقراء، ولا بد أنك تلاحظ أن فيها قلة قليلة ذوي غنى فاحش، قد تشبع أموالهم كل أهل تلك البلاد قرنًا من الزمان.

لكن هذا لا يعني أن الأغنياء هؤلاء هم الذين نهبوا تلك الأموال من خزينة الدولة وحرموا باقي الناس وأفقروهم.

ولا يعني كذلك أن حل هذه المشكلة يكون بأن يدفع أولئك الأغنياء أموالهم كلها إلى الفقراء، وستغنى كل تلك البلاد.

ولا يعني أن حل تلك المشاكل وفقر الناس والبلاد، يتم بالتوفير في الصرف والأكل والشرب، أو كما يدعي كثيرون أنها تتم بالصدقة أو بتوزيع الزكاة بشكل صحيح، أو يتم بالجمعيات الخيرية الإنسانية، أو كما تفعل الجمعيات التنصيرية التبشيرية في البلاد المُفقرة من أساليب الرعاية التموينية، إن مشكلة الفقر لا يتم حلها بهذه الكيفيات.

إن البلاد التي ذكرت كانت منذ فجر التاريخ تُغني أهلها ومن جاورها من البلدان، وتطعمهم وتسقيهم، وذلك لا يخفى على عاقل ولا مجنون، ولكن بعد أن دخلها الاستعمار آلت إلى ما هي عليه الآن، وبات أهلها ينامون في المقابر وعلى أرصفة الطرق، فهل تعلم ما هو السر يا حماري؟

قال حماري:

وماذا فعل الاستعمار فيها؟ هل هو الذي نهب أموالها؟

قلت لحماري:

إن هناك مسائل كثيرة هي التي أوجدت الفقر في هذه البلدان وتلك، على رأسها المستعمرون الذي نهبوا أموال البلاد الإسلامية وأخذوا فيما أخذوا دنانير المسلمين الذهبية ودراهمهم الفضة، وفرضوا عليهم العملة الورقية، أي أبدلوا ذهبهم وفضتهم إلى ورق نقدي، ولكن هذا وحده لم يكن هو المشكلة ولكن المشكلة التي عميت على كل الحمير أن الاستعمار غيّر النظام الاقتصادي، أو السياسة الاقتصادية الإسلامية التي سارت عليها سابقًا تلك البلاد، هل تعرف ما معنى السياسة الاقتصادية؟

قال حماري:

لم أعرف معنى السياسة، حتى أعرف معنى الاقتصاد.

قلت لحماري:

يا حماري،، إن السياسة هي رعاية الشؤون، من كلمة "يسوس" أي يرعى شأن أمرٍ ما، والسياسة الاقتصادية هي رعاية الدول لشؤون الناس المتعلقة بالأموال والثروات، في كيفية تنمية المال وامتلاكه وأوجه إنفاقه والتصرف فيه، وفي كيفية توزيع الثروات على الناس والإنفاق في شؤون الناس والبلاد، وفي مسائل كثيرة متعلقة بالإنتاج الزراعي والصناعي والحيواني والتجارة البرية والبحرية وغيرها، وفي تبادل المصالح التجارية مع الدول الأخرى، أي إدارة كل شيء يتعلق بالمال.

قال حماري:

وهل الإسلام لديه سياسة اقتصادية؟

قلت:

يستحيل لأي مبدأ أن لا تكون له سياسة اقتصادية تنطلق من وجهة نظره، وترعى شؤون الناس بها، بغض النظر عن نجاحها أو فشلها أو صلاحها أو بطلانها، ومن يجهل أن للإسلام سياسة اقتصادية خاصة به؟ وقد أدار دنيا المال والأعمال في العالم، وقاد مسيرة الاقتصاد العالمي أكثر من اثني عشر قرنًا من الزمان؟

قال حماري وهو متعجب لما قلت:

إن صح ما قلت، فلا عجب إذن أني وقومي حمير، لقد كنا نقود العالم لاثني عشر قرنًا من الزمان، واليوم نُقاد كالحمير، وهل السر في ذلك هذه التي سميتها لي: السياسة الاقتصادية.

قلت لحماري:

بالطبع لستم انتم الذين قدتم العالم أكثر من اثني عشر قرنًا من الزمان، وإنما كان ذلك أناس آخرون، أسلافكم من العقلاء، ولستم انتم، حتى ولو كانوا أجدادكم.
ولكن لا بأس يا حماري إن كنت تجهل أشياء لم يدركك الوقت لتعلمها، ولا بأس من جهل أمور ليس لك بها شأن مطلقًا، ولكن البأس من جهلك بما يتعلق بمبدئك وبفكره وبتاريخ مجده وبمستقبله.

قال:

هل يعني أن السياسة الاقتصادية تستطيع أن تقضي على الفقر والبطالة، والقضاء على المجاعات بالرغم من أعداد السكان الهائلة؟

قلت:

قلت لك السياسة الاقتصادية الإسلامية هي القادرة على القضاء على البطالة والمجاعات والفقر حتى ولو تضاعف عدد سكان الكرة الأرضية إلى عشرة أضعافها، وليست أي سياسة اقتصادية، بل إن السياسة الاقتصادية الرأسمالية اليوم هي الصانعة للفقر والبطالة والجوع في العالم أجمع.

قال حماري:

يا سيدي ولكن العالم اليوم يشتكي من السمنة حتى أنا أشتكي منها، وقد اكتنزت أوداج جسمي شحمًا ولحمًا، فهل نحن حقًا في حاجة إلى السياسة الاقتصادية الإسلامية؟ وفي حاجة لما تدعو إليه؟.

ضحكت كثيرًا مما قال حماري، وكأني أدعوه إلى وليمة ليزداد أكلاً، ويزداد جسمه شحمًا ولحمًا.

قلت لحماري:

أنا لن أستطع شرح ماهية السياسة الاقتصادية لك على قارعة الطريق، فذلك في حاجة إلى دراسة عميقة وجادة، وتتطلب منك بعض الجهد لقراءة بعض الكتب التي تشرح وتفصل قواعدها وملابساتها، وعلاقاتها بباقي السياسات في الدولة، ولكني سأذكر لك عمومًا القواعد الرئيسية التي ترتكز عليها.

إن رعاية الشؤون الاقتصادية في الإسلام تدور حول محور واحد، وهو ضمان تحقيق الإشباع لجميع الحاجات الأساسية لكل فرد إشباعًا كليًا، كالمسكن والملبس والمأكل والمشرب، والزواج والرعاية الطبية والمواصلات والاتصالات، وكذلك تمكين الإنسان من توفير الحاجات الكمالية.

إن ذلك لا يتم إلا بتمكين الفرد الواحد والجماعة من الإنتاج والعمل، بتوفير كل السبل لهم لذلك، وبتسخير الأرض لهم للزراعة، والمصانع للصناعة، وغير ذلك مما يمكّنه من الحصول على حاجاته الأساسية عن طريق العمل والإنتاج.

أما الأفراد غير القادرين على الانتاج كالصغير والسفيه والمجنون والعاجز وغيرهم، فإنه تتولى أمر رعايتهم الدولة من بيت مال المسلمين.

أما من تحتاجهم الدولة للعلم والتعليم وما شابهه، مما ليس من طور الإنتاج المادي المباشر، تتكفل الدولة فيه توفير حاجاتهم الأساسية بما يتناسب مع متوسط العيش في المكان الذي يسكنونه وزيادة.

وعلى هذا الأساس، ولتحقيق هدف الرعاية الكاملة تسخر الدولة كل الأجهزة والمؤسسات، ولا يقال إن الدولة تعطي من ينام أو من لا يعمل مالاً، بل إن الدولة تعاقب من لا يعمل، أو يهمل، أو يرفض العمل، بل إن العمل واجب على القادرين، يُعاقب تاركه.

ولذلك فإن السياسة الاقتصادية تعمل لرفع مستوى المعيشة في البلاد بالتركيز على حاجات الإنسان الأساسية ثم الكمالية، مع ضمان انتفاع كل فرد من هذا العيش.

قال حماري:

ولكن من أين ستُوجد وظائف لملايين الجامعيين العاطلين عن العمل؟ أو من أين ستوجد المال الذي يوفر كل الحاجات الأساسية لكل طلاب العلم الذين تفوق أعدادهم الملايين؟ هل نستدين من البنك الدولي؟ كما يسمونه، أم من الدول الغنية؟.

قلت لحماري:

لو انطلقنا لمعالجة المشاكل الموجودة الآن في الواقع من خلال واقعها، لما انتهينا أبدًا، فهي ليست إلا نتاج مشاكل لها أصل مبدئي، ولذا لا يمكن حلها على الإطلاق، ولكن سأجيبك على أي حال على سؤالك:

هل إن كانت هناك دولة في حاجة إلى ألف خبير زراعي، هل من الحكمة وحسن التخطيط أن نقوم بتعليم وتخريج عشرة آلاف منهم، أو تخريج خمسة آلاف نجار أو سباك بدلاً عنهم؟ أو تخريج أعدادٍ هائلة من العلماء من دون أن تكون هناك نهضة زراعية أو صناعية أو تقنيّة أو غيرها، أو سياسة تخطط لها؟

إن هناك ميزان دقيق وخطط في مسائل التعليم والتنمية والتطوير تقوم بها الدول، فهناك ميزان يقرر المسائل والأشياء لحاجة الأمة ونهضتها، ويقرر الانتاج مع حاجة الاستهلاك، هذه الموازين تقوم الدول بوضع دراسات لها وخطط، وتعمل الدول بالتالي كل ما يلزم لهذه النهضة، وذلك بتمكين الناس من ثروات الأرض ومن الأراضي الزراعية وغيرها، وتمكينهم من القيام بالصناعة بكل أنواعها، ومن التجارة، وتسخيرهم لما يخدم البلاد والأمة، وقيادة نهضة صالحة للبلاد والعباد.

التمكين من الثروات والأعمال والأرض أحد أهم الأمور في تفجير عجلة الإنتاج والقيام بالنهضة، والاكتفاء الذاتي الغذائي والصناعي وغيره.

أما مسألة الاستدانة من البنك الدولي، وما شابه ذلك، فإن البنك الدولي ليس إلا أداة استعمارية توهم العامة بفعل الخير وتخضع الخاصة والحكام والبلاد للشر المستطير. وهي علاج للداء بداء أشد منه، وهي خطوة تدميرية، يقوم بها عادة من يريد أن يغرق عجلة اقتصاد البلاد في الوحل، ومن يعمد إلى الديْن ليحل به مشكلات اقتصادية فمثله كمثل الذي يريد أن ينقذ عجلة النهضة من الوحل فيقوم بتحطيمها ليخرجها من الوحل قطعة قطعة.

قال حماري:

كأني فهمتك الآن، أن الاستدانة من البنك الدولي أمر غير صحيح.

قلت لحماري:

إن الاستدانة من البنك الدولي هو كأي فعل من شأنه جعل الواقع مصدر التفكير، وعدم جعل الواقع موضع التفكير.

قال حماري:

أنا لا أنفك من فلسفة حتى تدخلني في فلسفة غيرها، أنا لا أفهم ما تقول.

قلت لحماري:

بالطبع إن الاستدانة من البنك الدولي فعل غير صحيح، تصور ماذا كانوا فاعلين لو لم يكن هناك بنك دولي يديّن؟!

إذن لبحثوا عن أفكار جديدة تغير طبيعة التعامل مع السياسة الاقتصادية الموجودة فيغيرونها، لأنها لم تثبت نجاحها، أليس كذلك؟.

قال:

نعم، وهذا شيء طبيعي.

قلت:

الحمد لله، هذا معناه جعل الواقع موضع التفكير، وهو الطريق الصواب.

أما إن كانت تلك السياسة الاقتصادية خاطئة، فمن غير الصحيح حل تلك المعضلة بمعضلة أخرى والاستدانة بالأموال الربوية لتتراكم المعضلات، فيزداد الناس والبلاد بالدين فقرًا.

وحتى لو لم يكن ذلك دينًا مشروطًا مذلاً، وكان عطاءً لوجه الله، فذلك ايضًا لا يحل مشكلة فقر الناس، فلا يمكن لدولة ما أن تعيش على مبدأ الاستجداء بدلا من النهضة والإنتاج.

هذا الدين أو هذا الاستجداء، يعني جعل الواقع مصدر التفكير والقرارت والأفعال، فتزداد تخبطًا وتخلفًا.

قال حماري:

ولكن هناك بلدان ليس بها ثروات طبيعية تجعلها غنية.

قلت لحماري:

يا حماري، هل يستوي الذي يجيد صناعة ما فيصنع ما ينفع بها نفسه وأهله والناس أجمعين، ويعلمها غيره، كالذي وجد كنزًا يصرفه على نفسه، فيبقى غنيًا وأهله حتى ينتهي أو يهلك ذلك الكنز؟

لا يستويان مثلاً.

إن السياسة الاقتصادية الناجحة والإرادة والجد لتطبيقها هي الثروة الحقيقية، وأما الثروات الطبيعية فهي موجودة في كل مكان وأرض، وليست هي الأصل، أي أن السياسة الاقتصادية وتوظيفها لخدمة الثروات الطبيعية والأموال بمجموعهما ثروة لا تقدر بثمن، والثروات لوحدها لا تقوم بفعل شيء إن لم تجد من يوظفها، بل عند عدم توظيف الثروات يزداد الطامعون ويكثر الأعداء واللصوص من الداخل والخارج.

قال حماري:

إن فيما تقول أشياء كثيرة لا أستطيع فهمها.

قلت:

وإن هناك أشياء كثيرة أخرى ترتبط بما حدثتك به، وتتعلق بها، ويجب دراستها وفهمها، خاصة عند مقارنة السياسة الاقتصادية الإسلامية مع السياسة المطبقة حاليًا في العالم.

قال حماري:

كل ما أقول لك شيئًا تقول لي يجب أن نقرأ كذا وندرس كذا، ألا يمكن الاستغناء عن هذه القراءة؟ على أي حال إن ما فهمته أن كثيرًا من دول الحمير الصفر يمتلكون السياسات الاقتصادية الناجحة، وهي ليست إسلامية، فهم لا يمتلكون كثيرًا من الثروات الطبيعية مثلنا، ويقومون بسياسات انتاجية في الصناعة والزراعة وغيرها أراها راقية، حيث يعيشون حياة مترفة تفوق عشرات أو مئات المرات عن شعوب أخرى.

قلت لحماري:

إن السياسة الاقتصادية الأوروبية والأمريكية ليست راقية، وإنما هي سياسة حميرية متطورة جدًا، فصناعاتهم وترفهم قائم على أساسين :

الأول: هو حصولهم على المواد الخام أي الثروات وعلى رأسها البترول من بلاد الحمير السمر بالقوة بدون مقابل حقيقي، أي بأسعار زهيدة وبخسة تحت ضغط القوة أو التهديد أو الاحتلال أو غيره، أو تقاسم المصالح مع حكام الحمير السمر.

والثاني: هو منع الحمير السمر من الصناعة، كذلك بقوة السلطان بل وبإخضاعهم لفتح أسواقهم لمنتجاتهم (أي لمنتجات الحمير الصفر) الاستهلاكية ومشاريعهم الإنشائية وبناء المدن، وكذا لمشاريع الحمير الصفر العسكرية الدفاعية، وغير ذلك كثير.

فكون أن الحمير الصفر هم أصحاب الصناعة، وكون أن الحمير السمر هم المستهلكون، يعني أن كل الأموال من جميع البلدان في عالم الحمير السمر تصب

في خزائنهم (أي في خزائن الحمير الصفر) وتثري بلدانهم ثراءً فاحشًا، ما الذي يغطي عيوب السياسة الاقتصادية والاجتماعية المتبعة في الغرب.

أي أن السياسة الاقتصادية الغربية تعتمد اعتمادا كليًا على السيطرة على البلدان الأخرى، وعلى ثرواتها وعلى أسواقها، وليست هي سياسة اقتصادية حكيمة وراقية ومتفوقة تُنهض البلدان والشعوب بذاتهم دون الاعتداء، ودون الظلم ونهب ثروات البلدان الأخرى.

وهذا يفسر كيف تكون إحدى بلدان الحمير السمر التي تشقها الأنهار كمصر مثلاً، بمساحتها العظيمة، وثرواتها التي تقدر بمئات الأضعاف مقارنة بإحدى بلدان الحمير الصفر الصغيرة جدًا كإيطاليا مثلاً، ويتساوى الاثنان في العدد السكاني، لا عجب أن ترى مصر تغوص في فقر مدقع وتخلف عظيم، مقارنة مع إيطاليا الصغيرة الصفراء وهي تغوص في ثراء فاحش.

قال حماري ولم يُبد أي تفاعل مع ما وصفت له آنفًا :

وما تقول في قوانين العمل والعمال المطبقة حاليًا في بلداننا أليست هي عادلة بما يكفي؟ وهي تعطي الحق لكل إنسان في الكسب والعيش والرفاهية.

قلت:

إن كل ما تراه من معاملات وقوانين عمالية وعقود ونقابات وما شابه ذلك في واقع السياسات الاقتصادية الحالية هو مخالف للصورة الحقيقية لنظام العمل والعمال في السياسة الاقتصادية الإسلامية، وليس من شأن ما تراه من نقابات وقوانين إلا الخضوع للواقع المرير في بلدانهم (بلدان الحمير السمر) والإبقاء عليه.

وأكرر قولي لك مجددًا، إن ذلك يتطلب قراءة ودراسة حتى تفهمه وتعيه.

الغريب في الأمر أن حماري يمتعض كلما ذكرت له أنه في حاجة إلى قراءة كذا وكذا، وكأنه يتجرع دواءً يثير الغثيان.

فقد تربى حماري والحمير السمر عامة وتعودوا كره القراءة والتعلم والعيش بدونها، وإن الدماغ ليتعود الكسل ويتعود كذلك النشاط، شأنه شأن العضلات التي تضمر لقلة الحركة بها، فيكره صاحبها تحريكها لأن في حركتها شيء من التعب والمضايقة.

وإن الدماغ ليزداد كسلاً عندما يتعود تلقي المعلومات عن طريق البصر مثل ما يحصل من خلال التلفاز، حيث يسترخي الدماغ ويرتاح، بخلاف الاستماع إلى المذياع أو إلى محاضرات أو ندوات، فالمستمع يتطلب ذهنه التيقظ ومتابعة كل كلمة وحرف، حتى يعي ما يستمع إليه، فيأخذ الدماغ بالتفاعل والنشاط كما يحدث في القراءة.

أما عند الحمير السمر فقد بلغ المصاب فيهم وفي أدمغتهم مبلغًا عميقًا، ولم يعد يتصور أغلب الحمير أن يمسكوا كتابًا تزيد عدد صفحاته المائة صفحة، أو أن يخلو الكتاب من بعض الصور الشيقة والجذابة.



حماري و تعدد الزوجات

جاء حماري يومًا يعلو وجهه السرور والفرح، متزينًا بأبهى حلة قد رأيته فيها، فسألته عن حاله، فقال بوجه طلِق، والفخر والتباهي يسود محياه:

لقد تزوجت بزوجة أخرى يا سيدي

فقلت له بعد أن دعوت الله أن يبارك له ذلك:

ولكن لِمَ تزوجت امرأة أخرى؟

همهم حماري قليلاً وقال:

لأني لست سعيدًا مع زوجتي الأولى، وكذلك أحب أن أكثر من نسلي، بالرغم من أبنائي السبعة، ولنقل ما شاء الله

قلت لحماري وأنا غير منكر لزواجه وإنما صُدمت من ذكره زوجه الأولى بسوء، بالرغم من كفاحها وصبرها وتحملها مشاق الحياة معه سنين طويلة:

ولمَ تذكر زوجك الأولى بسوء؟ أنا لم أسألك عنها، أنا سألتك عن سبب زواجك بأخرى، ثم مهلاً، ألم تدرك أنك غير سعيد مع زوجك إلا الآن وبعد مضي أكثر من عشرين عام من معاشرتك لها؟ أوَ كان هذا نفس شعورك حين دخلت بها يوم تزوجتها؟ وهل هو نفس شعورك عندما قضيت معها من السنين والأيام والليالي الملاح ما قضيت، وأنجبت منها سبعة من الأبناء والبنات؟

فلولا كنتَ كريمًا وذكرت محاسنها وأخفيت مساوئها عندي.

فتعدد الزوجات يا حماري ليس مردّه قبح إحداهن أو حسن أخرى، بل تكليف عظيم مع ما يصطحبه من المتعة لكلي الطرفين وليس للرجل وحده. ولا يخفى أن هناك لا

يقل عن سبعين دافعًا تدفع الرجل للزواج بأكثر من زوجة، وغالبًا ما يجتمع بعضها في آن واحد، فيندفع إلى التعدد، فلمَ تذكر زوجك بسوء؟ خيبك الله.

قال حماري:

نعم، نعم، لم أقصد، وإنما ذكرت ذلك من ضمن ما كنت أحس به من حاجة للزواج

قلت لحماري:

ولقد رزقك الله بسبعة من الأبناء، فلمَ ترى أنك في حاجة إلى أبناء أكثر؟

قال حماري:

عجبًا لك يا سيدي، أوَ هل على هذا أيضًا اعتراض؟ فما أجمل من الأبناء وكثرتهم، وقد أوصى الإسلام بتعدد الزوجات، وهذا منهج العقلاء الذي تذكرني به دومًا

تبسمت ضاحكًا وقلت:

يا سبحان الله،، ألم يعجبك من أحاديثي وفي منهج العقلاء والإسلام إلا تعدد الزوجات وتكثير الأبناء؟ يا حماري أليس أبناؤك أيضًا مثلك من الحمير؟ أم أن من بينهم بعض العقلاء؟

قال حماري:

لا، ليس بينهم عاقلٌ واحد.

قلت:

فلمَ تريد إذن أن تزيد في عددهم؟ أوَ لم أعلّمك كثيرًا، وجهدتُ كثيرًا في تعليمك لتصبح أنت من العقلاء؟

قال حماري:

ولكن علمني كيف أربيهم، ليصبحوا من العقلاء، وإني في ذلك جاد.

أخذني الحماس لطلبه وإرادته التي بدت جادةً، متناسيًا أن تربية الأبناء لا تبدأ بالأبناء وإنما تبدأ بالأبوين، فإذا ما أحسنّا تربية الآباء والأمهات وعاشوا بالكيفية

التي تربوا عليها أحسنوا هم تلقائيًا تربية أبنائهم،، فأخذتُ أغذّ في الحديث مع حماري بالشرح والتوضيح بدءًا من العقيدة الإسلامية والشهادتين ومقتضاهما وتربية الأبناء على التحرر والولاء لله، وأعدت له كثيرًا مما حدثته عنه من قبل، وهو ينصت ويجادل ويحاول أن يفهم، كأنه مهتم لأمر أبنائه، وتركني حتى فرغت من حديثي فقال:

بالله عليك يا سيدي هل تريدني أن أربي أبنائي بهذه الطريقة؟؟ والله إن هذا في غاية الصعوبة، يا سيدي لقد خططت لأبنائي أن يعيشوا كغيرهم من الناس حياة طبيعية، بدون عناء، وبدون هذا الفكر والحِمل الغليظ الذي يُكثر أعداءهم ويفصلهم عن المجتمع والناس أجمعين،، يبدو أنك يا سيدي لا تحب العيش وأبناؤك كما يعيش الناس، يا سيدي أفٍ من أحاديثك المليئة بالتكاليف والأوهام، لقد ضيقت عليّ الدنيا.

يا سيدي لقد حدثتني أمدًا طويلاً عن الإسلام، ولم أحدثك بشيء قط إلا وربطه بالإسلام، يا سيدي إن في هذه الدنيا متع كثيرة وجميلة كالحب والنساء والأموال والأسفار والنزهة والضحك واللعب، وأنا في الحقيقة أحد المخلوقات التي تحب ذلك كله، ولا أرى الدين إلا أنه يكره ذلك كله، ويعتبر أصحابه من الفساق أو الفاسدين.

ثم إني عندما تحدثت مع الحمير الآخرين عن مثل ما حدثتني به نظروا إليّ متعجبين وكأني رجل أحدثهم من كوكب آخر، وقد نُهرت منهم مرة قائلين لي: أغرب بوجهك عنا يا رجل، فقد أفسدت علينا أنسنا، وتوجه إلى المسجد خيرًا لك، فالدين في المسجد وليس عندنا. فأرجو يا سيدي أن تراجع أمرك، فوالله لقد ضيقت على قلبي الدنيا الجميلة، وحب النساء والأبناء، فذرني أنت ودينك هذا المتشدد، فبت لا أفهم شيئًا.

لا عجب، فحماري والحمير الآخرون يعرفون أن في التحرر من عبودية الحاكم وأنظمته تحرر من مصالحهم وأموالهم ومتعهم التي قررها ورسمها لهم هذا الحاكم بنظامه، ويعز عليهم، بل إنه أمر مصيري عندهم ترك كل تلك المصالح

والأموال من دون مقابل مادي يوازيه أو يضاهيه. وكذلك فإن الحمير السمر لا يعرفون من الإسلام إلا أنه دين الصلاة والشعائر التعبدية التي تمارس في أماكنها وأوقاتها، بعيدًا عن الحياة المنظمة الراقية المتعلقة بكل أنظمة الحياة، ولم يتعرفوا على حقيقة ورحابة الحياة الاجتماعية الإسلامية، فلذلك قصُر فهمهم على متع الحياة والشهوة والجنس والمال، وعلى مقياسها يكون حكمهم على الحسن والقبيح.

وما يتذكرونه عن الماضي هو تاريخ أسود قريب، عن جيل أو أكثر ممن كان قبلهم، وممن عندهم أخبارهم من الآباء والأجداد القريبين، في مرحلة لم تكن الحياة الإسلامية موجودة أصلاً، مرحلة شيوع الفوضى والاضطرابات، ومرحلة ذهاب ريح المسلمين، وطغيان الحمير الصفر الاستعماري لبلدان المسلمين، وانفلات حياة المسلمين، وزوال دولتهم المريضة العظمى، وعلى هذا السقوط والتخلف والضياع قاس حمير اليوم تاريخ المسلمين كله.

على إثر غياب الفكر الإسلامي وغياب دولته العظمى لا يزال الحمير السمر يظنون أن الإسلام محله المسجد، ولا شأن له في حياة الناس، وفُتنوا عن دينهم حتى أصبحوا يشعرون أن من غير اللياقة والتطور ذكر الإسلام في المجالس، أو طرح أفكاره أو ربطه بالأفعال وبقضايا الناس ومصالحهم، فإن الإسلام هو شأن الزاهدين عن الدنيا أو المعقدين أو المتشددين أو غيره، والإسلام لا يقر بالمتع الدنيا ولا بالضحك والمزاح والحب العاطفي ومداعبة الأطفال والنساء، ولا يقر بالأسفار والتنزه والاستمتاع بالأموال، وأن الإسلام لا يصح أن يتحدث به إلا ما يسمى بالمتدينين، أو حاملي الشهادات الجامعية لكليات الشريعة والدراسات الإسلامية، ورجال الدين المعتمدين في الدول.

لا نعجب عندما يتبرأ أحد الحمير السمر من الإسلام وهو يحاول إيجاد مبررات عقلية واهية لقرار تعدد الزوجات الإلهي أمام أحد الحمير الصفر أو أحد الملحدين،

حتى لا يوصم بالتخلف، وحتى يوافق حديثه الموضة، فحكم تعدد الزوجات كما يدّعون من التخلف الاجتماعي ومثار للمشاكل الاجتماعية، ويعتبرونه خللاً في نظام الإسلام وصلاحيته.

يتحدث الملحدون والحمير الصفر بذلك وكأنهم الشرفاء الذين يعيشون في نعيم الجنان، ورائحتهم ورائحة فسادهم الخلقي والاجتماعي بهذا الشأن وغيره يزكم الأنوف.

ولا نعجب كذلك عندما يتحرّج الحمير السمر من بعض أحكام الإسلام، ووصفها أنها همجية كالقصاص في القتلى، أو قطع يد السارق، أو رجم الزاني المحصن، وغيرها من الأحكام الشرعية.

ولا نعجب افتتان الحمير السمر بالحمير الصفر وبحضارتهم، ويرون أن هؤلاء هم الأجدر بإعطاء الرأي فيما يتعلق بالإسلام وأحكامه، فيأخذ الحمير السمر يتبرأون من تلك الأحكام أمام الغرب كأحكام الجهاد وغيره، ويحاولون إيجاد المبررات لسبب نزولها، كالقول أن تلك الأحكام كانت ضرورية في أحد الأزمان ولم يعد لها قيمة الآن، أو أن النصوص مقيدة بسبب نزولها، وهي الآن في اعتبار المنسوخ من الأحكام.

والأعجب من ذلك قيام بعض الحمير السمر بتقييد الإيمان بالله وبصحة الإسلام بما يقدمه لهم الحمير الصفر من براهين علمية على صحة بعض الغيبيات أو بعض الأخبار الواردة في القرآن الكريم، فأصبح الحمير الصفر عندهم هم نقطة الانطلاق للهداية إلى الله والإسلام، وليس البراهين العقلية كما هو متبع في الإسلام.

فما يمليه الحمير الصفر من أحاديث وبراهين علمية صادقة أو كاذبة أصبح هو الذي يُقاس عليه، وادعى بعضهم أن ذلك لا بأس به لتقوية الإيمان بالله والاهتداء، ولكن قواعد الإيمان على حقيقتها لم تُبن بناء صحيحًا في عقولهم، وليس لها واقع في نفوسهم حتى يعملون على تقويتها.

وقد وقع في هذا الفخ بعض العقلاء الجاهلين بحقيقة طريق الإيمان وليس الحمير فقط.

ولا نعجب أن الحمير السمر قاموا ينحون مناحي الحمير الصفر بالاتجاه إلى الموسيقى والرقص والتمثيل المحرم والغناء والرياضة والتفوق في أي شيء، والتنافس عليها، ذلك لأنهم تبنوا مفهوما للنجاح والتفوق كالذي يؤمن به الحمير الصفر، أن النجاح والتفوق يحصل عندما تتحقق الشهرة والمال اللذان هما موضع الاحترام والتقديس، حتى قام الحمير السمر فعلاً يقدسون المغنيين والممثلين والممثلات والمشهورين من الرياضيين وأشباههم، وكل من يظهر في الإعلام كافرًا أو فاجرًا أو عدوًا.

ولا نعجب أن مفهوم السعادة هو الآخر قد تبناه كذلك الحمير السمر كما يؤمن به الحمير الصفر، وهو أن السعادة تتحقق عند تحقيق أكبر نصيب من المتع الجسدية بأي كيفية وبأي وسيلة دون وضع اعتبارات لأي من القيم الروحية والإنسانية أو الأخلاقية.

ولذلك فإن حماري الذي قام يردد بعض المفاهيم الإسلامية بين قومه، وهو نفسه لا يعي قواعدها وأهدافها، رموه محدثيه عن قوس واحدة، فهم في وادٍ والحياة الإسلامية في وادٍ آخر، فقد كان يتحدث معهم في شيء يجهلونه ولا يدركون غايته.

ولذلك فإن كثيرًا من الحمير السمر ممن يحب الإسلام يخطي الظن في كيفية التعامل مع الإسلام، كالذي رأيته يوسع ابنه ضربًا ويقيده بالسلاسل ويسجنه حتى يرغمه على الصلاة، ولم يع أن الصلاة هي في واقعها سلوك مقيد بالعقيدة التي تقوده هي، وليس العصا، إلى القيام بها. إن الإيمان بما جاءت به العقيدة الإسلامية هي الباعث لفعل ما يريده الله من عباده من الخير واجتناب الشر. ولقد

أصبح حال الشباب كابن هذا الرجل الذي لا يصلون إلا مقيدين بالسلاسل وتحت تهديد العصا، وليس تحت مظلة الإيمان الحر.

وكما أن الشيء بالشيء يُذكر، فالحديد لا يُصهره الثلج، والثلج لا يتكون بالحرارة، والماء لا يتبخّر بالبرودة، وكذلك فإن السلوك لا تغيره العصا، ولكن تسيره القاعدة الفكرية (العقيدة).

قال حماري يومًا وقد نسي أو لم يفهم كثيرًا مما حدثته عنه:

هل يتوجب على كل الحمير ليرتقوا فيصبحوا من العقلاء أن يعلموا ويحملوا شهادات مثلك، أو هل كل العقلاء مثلك يحملون الشهادات العلمية التي تحملها أنت؟

قلت لحماري وقد أدركت أنه لم يعرف بعد كيف يميز بين الحمير والعقلاء، ومتى يكون الإنسان حمارًا ومتى يكون عاقلاً، وقد أدركت أن الحمير يُفتنون ببريق ولمعان الشهادات العلمية، ويفتنون بالمظاهر والمراكز الإدارية:

يا حماري إن العلم الذي أحمل والشهادات ليس لها علاقة بتاتًا مع كوني عاقلاً، بل إن بعض العقلاء ليقلّ علمهم بدرجات أو مراحل عن كثير من الحمير، وقد فصلت ذلك لك مرارًا وتكرارًا، ولكن لا بأس سأعيد عليك ما بينته لك من قبل: إن الحمار هو الذي لم يتخذ الإسلام دينًا بعقيدته ونظامه، إما عنادًا أو مكابرة أو تجاهلاً أو مصلحة، أو خيانة، أو خوفًا على نفسه ومصالحه، وهو الذي لم يعمل بهذا الدين ولم يعمل على نشره أو الدفاع عنه، فقد تجد عاقلاً لا يفقه كثيرًا في أحكام الصلاة، ولكنك تجده من أعظم المجاهدين في سبيل الله، أو تجده من خير المدافعين والمنافحين عن دين الإسلام والدعوة إليه، أو تجده قويًا على الحق، ومخلصًا في أعماله وعلاقاته، وصادقًا في أداء أماناته، إيمانا واحتسابًا لكسب الثواب من عند الله.

وإذا ما ازداد علم العاقل وازدادت ثقافته أو تعلم صناعة أو حرفة ما، يزداد فضله عند الله وترتفع منزلته.

وقد تجد حمارًا عنده علمٌ واسعٌ وثقافة عالية، ولكنه من الخائنين للأمانة، والزاهدين عن الحق، والضالين في تعاملاته وعلاقاته، والكاذبين في أقواله، لا يدفعه ولا يمنعه ولا يرضيه إلا مصلحته، ويقر الظلم والضلال والانحراف، أو على الأقل يسكت عنه.

قال حماري:

حسن إذن، هل تجدني إذا تعلمت ودرست ما شرحته لي، هل أصبح حينها عاقلاً؟

إن حماري لا يلبث ويسأل ويكرر ويعيد طرح سؤالِه هذا، ولا ألبث أنا إلا أن أجيب وأكرر الإجابة، وأظن أن أسئلة كثيرة كهذه تأتي من كون الحمير السمر تفوق أمانيهم وطموحاتُهم قدراتِهم وهممَهم واستعداداتِهم للعلم وطلب العلم والبذل والعطاء والتضحية.

فحين يطرح حماري هذا السؤال أو مثله يشعر بنشوة السمو في أفق الأماني العالية من خلال الحديث الراقي، فيعيش أجواء أحاديث النهضة والفتح والنصر ويتمتع بهوائها، فإذا ما انتهت الأحاديث يعود بنفسه إلى عالم الواقع الذي لا يستطيع أن يتفاعل معه فكريًا ولا شعوريًا، ولا يؤثر فيه فعلاً، لأنه في الأصل لا يحمل عقيدة هذه الأحاديث، ولم يسبق له أن فكر أو عمل بها، بل إنه لا يعرف إلا الخمول والكسل وكسب العيش السهل، واعتاد الحياة لذاته هو، ولإشباع غرائزه وحاجاته لا أكثر.

وكذلك ليس لديه أي استعداد لتبني أي فكر من ورائه التزامات ومطالب ومسؤوليات وتكاليف، وليس هو الذي مغيرًا لسلوك قد اعتاد عليه، واعتاد الكسب والعيش من خلاله، حتى ولو كان ذلك الكسب أو السلوك هو الذي قد أبقاه في درك الحمير.

وإنه لا عجب أن يقوم أحدهم بصيام أو صلاة أو نسك إلا ليشعر بالطمأنينة، ويتخلص من الشعور بالذنب، حتى ولو علم أنه يخادع بهذا نفسه، فذلك أقل جهدًا وكلفة من سبيل آخر فيه من الجهود والتبعات التي لا يحمد عقباها اليوم.

أو أن الحمير يظنون أن منهجهم هذا هو أقصر الطرق للوصول إلى المصالح والمحافظة عليها، وبلوغ الجاه، لذا فإن الرقي عندهم إلى درك العقلاء شيء غير جذاب، إلا أن حماري الذكي ما زال يتلمّس بكثير من الأسئلة إذا ما كان ما أدعوه إليه قد يكون واعدًا لسلطان أو مصالح هنا أو هناك أو السقوط من خلاله على ثروة.

ويدلل على ذلك طبيعة أسئلته المبتدئة بأدوات استفهام يُتحرى من خلالها مواطن النفع، لا يُرتجى منها العلم والمعرفة لغاية تبنيها وتغيير تفكيره أو تقويم سلوكه.



حماري و الأقمار الصناعية

تجنبت كثيرًا توجيه أسئلة مباشرة إلى حماري خوفًا من أن أستعجله على الخير الذي أريده له، حتى لا يتفاعل معها تفاعلاً مناقضًا، مما أعلمه فيه من تعنّت وعِنْد، فلا يكون لي بعدها سبيل إليه، ولكني الآن عزمت على أن أباشره بأسئلة مباشرة فلربما قد تعلم كثيرًا من أحاديثي.

قلت لحماري:

لقد بت أشعر برغبتك في أن تصبح من العقلاء، فقد أصبحتَ تُكثر الأسئلة والتحري وتحاول التعلم فهل تُحب أن تصبح من العقلاء فتُفصح لي حتى أعينك على أمرك؟

قال حماري من فوره :

نعم، نعم، ولكني أخاف زعماءنا وزعماء الحمير الصفر.

قلت مندهشًا :

ويحك، وما شأن أولئك في ما أسألك عنه؟

قال:

كيف يكون أولئك لا شأن لهم فيما تسألني عنه؟ إنك تدعوني للتحرر منهم ومن طاعة أوامرهم واجتناب نواهيهم، وأتبع آراء أصولية كما يسمونها قد تكون محظورة وتُلقي بالرجل مباشرة إلى السجن.

قلت:

وليكن ذلك، فما أدعوك له هو الحق، وهذه إرادتك يا رجل وحريتك، ثم ما أدراهم عنك وأنت أحد عشرات الملايين من الناس؟

قال:

لا لا، بل سيعرفون، إن للجدران آذان، وهم يمتلكون أقمارًا صناعية مسلطة، ويمتلكون أدوات تجسس تكشف كل شيء، وتعرف كل شيء عن الناس وأحوالهم وأفكارهم، بل إني خائف أنهم يراقبوننا الآن للتوّ ويتنصتون على أحاديثنا.

وقفت أنظر إلى حماري وفي عينيه، وإلى ملامح وجهه، علّه يكون مازحًا أو بما قال ساخرًا، أو على الأقل متسائلاً، فكررت عليه قولي، وكرر هو نفس قوله، وإذا بي أجده جادًا يعني ما يقول، ويؤمن بما يقصد.

هل يظن الحمير السمر حقيقة أن الحمير الصفر بأقمارهم الصناعية وأجهزة تجسسهم مطلعين على كل إنسان، أفعاله وأقواله وتحركاته، أو حتى ما يكنّه ويسرّه في نفسه، فلا يكاد يتحدث بحديث أو يعزم بعزيمة حتى يجد نفسه مكبلاً بالقيود ومقودًا إلى السجن؟.

إذن فقد أنزلوهم بهذا الظن منزلة الله "جل وعلا" في قدرته، وبأنهم يعلمون خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأنهم، وأنهم كما يقول حماري محاولاً إقناعي جادًا أن ذلك حقيقة لا تخفى.

ثم تبين لي أنه وباقي الحمير السمر يحملون هذا الظن وما شابهه وهو متداولٌ بينهم، وماثلُ في عقولهم وقلوبهم.

أخذت أفكر مليًا وأتساءل، أوَ هل بقي شيء لا يعاني منه الحمير السمر؟ هل كان ينقصهم أن يصابوا برعب كهذا، وأوهام وهواجس كهذه؟

إن الخوف فطري في الإنسان، ولكن كما يبدو لي أن القضية لم تعد قضية خوف، فالخوف مرهون بغريزة البقاء وهو لجام للإنسان من أن يؤذي نفسه، أو أن يتهور فيقتل نفسه بغير علم، وهو محدود بحد معلوم من الأذى المحتم وقوعه، مثل الخوف من النار، أو الخوف من الغرق لمن لا يعرف العوم، أو الخوف من السقوط من علٍ، أو الخوف من اجتراع السم.

ولكن عندما يزداد خوف الإنسان زيادة عما هو من منطلق الغريزة يبدأ يتخوف من الأشياء المحتمل وقوعها، كالخوف من العواقب المحتملة للقفز من علوّ، أو من السرعة عند قيادة المركبات، أو عواقب الإهمال الوظيفي، أو العواقب المحتملة لقول كلمة الحق عند صاحب سلطان.

ولكن يبقى هذا الخوف إلى هذا الحد غير مذموم، فباب الحذر والوقاية مفتوح، ولا يُعتبر من لم يخف هنا متهورًا، بل قد يكون في القيام ببعضها شجاعًا ومقدامًا.

أما إذا ازداد خوف الإنسان عن درجة الخوف من العواقب المحتملة، وتعداها إلى الخوف من العواقب المجهولة، كالخوف من مجرد المشي في الطريق لعاقبة مجهولة من أن يعتدي عليه أحدهم، أو أن يسقط على رأسه شيء من السماء، أو أن يستنشق هواءً ملوثًا، أو الخوف من ركوب الطائرة أو أي مركبة أخرى لألا تسقط أو تصطدم بشيء مجهول، فيدفعه هذا الخوف إلى الامتناع عن الحياة بكيفية طبيعية، كامتناعه عن الزواج خوفًا من الفشل، أو يمتنع من الإنجاب خوفا من عقوق الأبناء إذا كبروا، أو خوفًا من مجيء أطفال معاقين، أو الخوف من حتمية البطش لمجرد قول كلمة الحق عند أحدهم، ويؤثر أن يرضى في تخلف وانحدار وتحت سيف الباطل والظلم على أن يُقدم على شيء من هذا.

إن الجبن، أي الخوف من العواقب المجهولة وكأنها محتمة الوقوع، درجة مَرَضيّة تصيب الإنسان أو الناس، أسبابها الجهل بواقع الأشياء، كصاحبنا هذا الذي يخاف من وجود الأقمار الصناعية أن تراقبه وتسهر على متابعته وملاحقة أفكاره وتسجل عليه كل تحركاته، فهو جهل بواقع الأقمار الصناعية وقدراتها ومحدودية عملها التي صنعت من أجله.

أو كالشعوب التي تستسلم لعبودية دول أعظم منها لمجرد أن تلك تمتلك قنابل نووية وهم لا يمتلكون، وهمٌ ذريع وجهلٌ منهم بواقع السياسة والحرب والسياسة الحربية والعسكرية وغياب العقيدة الراسخة، والإرادة القتالية.

إن القنابل النووية لا تصنع النصر بالرغم من قدرتها التدميرية العظيمة، إنما هي سلاح يحسم معركة فقط بين طرفين، وحقيقتها هي بخلاف الادعاء الذي يغسل الحمير الصفر أدمغة باقي الشعوب به، إنما الذي يصنع النصر والتفوق هو إرادة الشعوب، وفيتنام والعراق والثورات العربية خير دليل على الحسم والفتح.

إن الأذكياء المنتصرين يستغلون جانب الجهل عن واقع الأشياء عند غيرهم، فيوهمونهم بها لتحقيق أهدافٍ كثيرة سياسية واقتصادية وعسكرية، تحت مظلة الترعيب والترهيب، ولذا قد يعتقد كافة الحمير السمر المنهزمين أن الحمير الصفر بمجوعهم أفرادا ودولاً قد أصبحت لهم الهيمنة المطلقة على كل خفي وظاهر، كهيمنة الله عز وجل أو أشد سطوة، فقعدوا في بيوتهم، وعقدوا على ألسنتهم من الرعب، يسبحون بحمد الحمير الصفر وبقوتهم وسيطرتهم وهيمنتهم لا يحركون ساكنًا، فإنه لا غالب لهم، لا بإذن الله ولا بغير إذنه " جل الله وعلا عن ذلك علوًا كبيرًا ".

فالقضية إذن برمتها هي قضية انهزام عقلي ونفسي وشعوري مبنيّ على الخوف من المجهول، والاستسلام للواقع. حتى أن الحمير السمر باتوا يخافون من التحرر وأن يصبحوا من العقلاء لألا تصيبهم لعنة الحمير الصفر وقنابلهم النووية، وها نحن نرى اليوم الحمير السمر يُسيّرون فكريا وتربويًا وتعليميًا بمناهج الحمير الصفر، لا ينقدون ولا يعترضون ولا يمتنعون حتى ولو كانت من أي حمار أصفر يعمل في نظافة الشوارع، تؤخذ تعليماته بالتسليم المطلق، مع غاية الرجاء بعفوهم ورضاهم.

سألت حماري قائلاً :

لماذا لا يحب الحمير الصفر أن ترتقوا إلى عقلاء؟

قال:

ولماذا تسألني عن شيء تعرف إجابته أنت؟

قلت لحماري:

لم أسألك إلا لأني لم أستطع بعد إدراك كونكم تؤثرون بقاءكم حميرًا، بدلاً من أن تسعوا جاهدين للرقي بأنفسكم، يمنعكم حب النفس والهوى، والاستسلام للواقع.

قال حماري:

نحن لا نؤثر التخلف ولا نرغبه، ولكن ليس منا من هو مستعد للبلاء، بل يُرمى بالجهل وإتباع الفتنة والخروج عن الجماعة كل من هو مستعد منا للبلاء والتضحية، أو يُتهم أنه يلقي بيده إلى التهلكة.

قلت لحماري:

وماذا ترى أنت؟

قال حماري:

أنا لست في ذلك إلا كما قال الشاعر :

ما أنا إلا من غزيةٍ إن غوتْ غويتُ وإن ترشد غزيةٌ أرشدِ

وإذا أراد الله أن يغير حالنا فسيغيره، ألا تؤمن بالقدر يا سيدي؟

قلت لحماري وقد علمت أن الحمير السمر يعانون من داء القدرية الغيبية، إلى شيء ينزل من السماء، فيغير ما بحالهم:

يا حماري إن القدر أمر ليس في حكم الخلق، ولا يملكون في إدارته شيئًا، أما تبنّي الإسلام والعمل على النهوض به والقتال تحت رايته، كل هذا ليس من القدر، بل إن الله قدّره لأن يكون بين أيدي بني الإنسان، فيكون باختيارهم أخذه أو تركه، فإذا أخذوا به اهتدوا ونهضوا ورقوا، وإذا لم يأخذوا به ضلوا وذلوا واستقروا في درك الحيوان، وعاقبهم الله على ذلك.

قال حماري:

أعلم، أعلم، ولكن يوم القيامة قد اقترب، وظهرت علامات الساعة، والحياة على ذلك ستنتهي، فلِمَ نجهد أنفسنا لأمرٍ سيتولاه الله وينهيه؟

عجبًا لهؤلاء الحمير، لا أطرق جانبًا من جوانب الفكر والرأي إلا وقد اتخذوا لأنفسهم فيه حججًا وآراء تهزمهم، ينسلخون بها عن التكاليف نحو أنفسهم وبالتالي عن دينهم وعقيدتهم ومجتمعهم وأمتهم، ويحافظون بهذه الآراء والحجج على أنفسهم في درك التخلف والانحطاط.

قلت لحماري:

إن أمر الساعة لا شك فيه، ولكن هذا لا يغيّر ولا يبدل من وجوب تبني الإسلام والنهوض به، وليس لقرب قيامها شأن في التكاليف المنوطة بالعبد فيتخلى عن الدين ويتخبط ويُذل ويهان ويبقى في درك الحيوان ينتظر قرب الساعة أو قيامها، وموعدها لا يعلمه أحد، وهو ليس من شأننا، وإنما من شأن الله سبحانه وتعالى.

سكت حماري وكأنه لم يكترث لما قلته له، وأنا على علم أن الأفكار المُخدرة قد تأصلت عند الحمير السمر وغيرهم، فوجود مخدر من هذا النوع "القدرية الغيبية" يتوافق مع تصديقهم بوجود الله، ومع المبررات التي يضعونها لأنفسهم بعدم التحول إلى التحرر وبعدم تحمل تكاليف هذا التحول وأعبائه كالمطالبة بالشريعة، ومقارعة الحكام ومواجهة الاستعمار، والقيام بأعباء النهضة وتكاليفها.

فالقدرية الغيبية (أي الاستسلام لكل ما يحدث في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ، على اعتباره أنه كله من الله سبحانه وتعالى، فالله هو الذي يأتي بالأحداث، والله هو الذي يرفعها، وليس الإنسان إلا مسيرًا كالريشة في الهواء، وبالتالي فهو غير محاسب على شيء) تتناسب تمامًا مع روح الهزيمة والخضوع والانبطاح حتى يستطيع صاحبها وهْمًا الشعور بالطمأنينة والرضى والسكينة.

وكالقدرية الغيبية هناك أفكار أخرى مخدرة تشبهها، كالتصور بأن الصلوات والإغراق في النوافل والدعاء والتسابيح وترك الأعمال المؤثرة والواجبات كالدعوة والجهاد كافية لجعل الله "جل وعلا" يقوم بتغيير حال الحمير وهم نائمون في بيوتهم.

حقيقة لا نقلل من قدر النوافل وعظيم أجرها عند الله، ولكنها ليست من الدين في شيء إن لم يؤد صاحبها الواجبات والفروض، كطلب العلم الشرعي والدعوة والجهاد، والعمل أن يكون الحكم لله.

ولم تسلم الدعوة الإسلامية من التحريف، فقد غيرها الحمير السمر لتتماشى مع العقيدة النفعية وتجنب بطش الحكام، فمنهم من حرف مفهوم الدين على أنه دعوة أخلاقية، تدعو إلى الأخلاق الحسنة والأعمال الفاضلة والتسامح والاستسلام.

ولقد تأثر بعض العقلاء بالعقيدة النفعية فمنهم من تنازل عن جانب من الجوانب الأساسية في الدعوة إلى الإسلام وارتضى حلولاً وسطًا تجنبهم بطش الباطشين، حتى ظهرت عند كثير منهم أشكال عديدة للدعوة التي ليست من منهج الإسلام في شيء، كاعتماد المنهج الإصلاحي في التغيير وهما نقيضان، أو انزلاق بعضهم جهلاً بواقع السياسة الغربية في غياهب الدعاوى الديمقراطية، أو غير ذلك من الأعمال كاتخاذ العنف والتشدد سبيلاً في الدعوة وغير هذه المناهج ذات الاجتهادات الشخصية غير الشرعية.

في الحقيقة يتركز حديثي هنا على الحمير وليس عن العقلاء، فلنبق معهم.



النهاية السعيدة

أعود وكما ذكرت أن موطن همي هو الحمير السمر وغيرهم من الحمير وتغيير واقعهم إلى عقلاء، ولست هنا بصدد العقلاء وأفعالهم اليوم.

لقد جهدت كثيرًا، يشغلني ويؤرق نومي ومقامي حال الحمير السمر، فلو عقلوا بما عندهم من طاقة وقوة وكثرة وموقع جغرافي وثروات وغير ذلك كثير لسادوا الأرض، ولخضعت لهم الشعوب، فقيرها وغنيها شكرًا لهم واعترافًا لهم بالجميل، أو يخضعون لهم صاغرين.

ولو تحولوا لتحولت الأرض إلى جنة تذكّر بجنة السماء التي ليس فيها ظلمًا ولا هضمًا، ولا مهانة ولا قهرا، ولكن من أين لي بجموع الحمير تلك التي تأبى ابتداءً أي تغيير لحالها، وقد آثروا البقاء حميرًا، وسجوا على أن يأكل بعضهم بعضًا، وينهش بعضهم أجساد بعض، وآثروا أن يحاربوا أنفسهم لقاء مال قليل وظلم عظيم.

أين لي بهم؟ وها هم إذا ما دُعوا رأوا في تلك الدعوة سفاهة وفلسفة وخروجًا عن الاستقامة وخطر محتوم، وأين لي بهم ولم يعد لي بهم أي نقطة التقاء، بل نقاط افتراق، وقد أهلكهم السعي إلى لقمة العيش كما يقال، وكأن لقمة العيش لا تأتي إلا مغموسة بالذل والمهانة، وبالخضوع والأذى والخنوع.

ويا ليت تلك السبل قد جمعتهم ليكونوا أمة واحدة، ويا ليتها صنعت لهم مجدًا، إن الباطل حقًا لا يُجمّع، بل إن الباطل يفرق ويمزق، ويُلبس الناس شيعًا، ويصبغهم بالنفاق والضلال.

ويا ليت الحمير يجهلون حالهم حتى يُلتمس لهم الأعذار، بل إنهم على علم بالانحراف الذي أصابهم والتخلف والانحطاط الذي أحاط بهم، بل هم يعلمون أكثر مما أعلم عن أنفسهم، وإذا ما أتاهم أحد مثلي نظروا إليه متعجبين من حديثه، ومن دعوته مستنكرين ساخرين، وبالجنون والوهم والخيالات له واصفين.

أخذت أحادث نفسي كثيرًا، وقد بدأت أفهم حال الأنبياء والعقلاء وهم يدعون أقوامهم، وقد ذهب كثير منهم ضحية المحاربة بالقتل والإهانة والإذلال، وقوبل إخلاصهم وتضحيتهم ودعوتهم الصادقة بالسخرية والاستهزاء والاتهام بالجنون، واتهامهم بحب المال والجاه والسلطان.

وتبلغ السخرية والازدراء عادة قمتها عندما لا يستجيب لهذه الدعوات إلا قليل من الأقوياء والأغنياء والكثير من الفقراء والضعفاء والمقهورين، أو بادي الرأي كما يصفونهم.

ولم تفتقر الدعوة عند الأنبياء أو الصالحين لشيء من البيان، بل كانت الدعوة واضحة جلية، ولكن الرفض كان مصدره الكبر والاستعلاء، والترفع عن النزول لرأي الغير، أو رفض النزول لعادات وتقاليد جديدة تخالف الهوى والمصالح.

ويتعدد الرافضون للتغيير أو حتى للإصلاح بين صاحب سلطان ومنافق وانتهازي ومرتزق ومجرم صريح، تحت مظلة الأنظمة القائمة التي إن تبدلت قلبت عليهم ظهر المجن وعلى مصالحهم، فيقفون موقفًا رافضًا تجاه أي أمر من شأنه التبديل عليهم، حتى ولو ذهب ضحية مصالحهم مئات الألوف من الناس.

أما اليوم فقد أصبح هؤلاء الرافضون أكثر سوءًا ونفاقًا وإجرامًا ومكرًا ممن كان قبلهم، فقد استخدم هؤلاء الحق لمحاربة الحق، بإلباس الباطل ثوب الحق، وإلباس الحق ثوب الباطل، حتى أفقدت الناظر التمييز بين الحق والباطل، فأصبح الناس خير سند للسلطان القائم، وخير معين ضد أي دعوة من شأنها التغيير أو حتى الإصلاح.

فكان من جراء ذلك أن انحرفت معظم المفاهيم وأهم قواعد التفكير السليم، وانحرفت مقاييس الأعمال وطرائق التفكير، وأمطر سماء الإعلام المنظم الشرس الأرضَ بمعلومات خاطئة، وأفكارٍ أعمت الأبصار، فاشغلت العقول بما لا ينفع، وأفقدتها ربط الأفكار ربطًا صحيحًا، حتى تكبلت العقول بقيود أفقدتها حتى التبصر بالبديهة والمنطق السليم.

وها أنا ذا مع حماري وأنا أعلمه أشهرًا وسنينًا، وأفقهه بكل شيء أعلمه وأتعلمه، ساعيًا تغيير فكره لأحرره من عبوديته، وأرقى به إلى مصاف العقلاء، ولكن هيهات.

لا أقول أني لم أنجح في شيء، ولكن التيار الفكري الذي يقاوم ويناهض ما أحمله إليه تيار عظيم، فلا ألبث أترك حماري أيامًا حتى ينسى كل ما علّمته، ويعود فيهيم في الأرض يأكل ما خبث منها، كأن شيئًا لم يكن، ويعود الحال كما كان.

ثم أجده يعود فيما بعد، فيجادلني ويراجعني فيما قد تبين له من الحق وأقره، ثم يعود فينصحني بترك الدعوة التي أدعوه إليها، وكأنه قد أخذ على نفسه عهدًا أن يحط بي من مصاف العقلاء إلى مصاف الحمير، كنفس العهد الذي أخذته على نفسي بالرقي به وبغيره من الحمير إلى مصاف العقلاء، فوا أسفي عليه.

كثيرون هم الذين يحاولون إقناعي بعدم جدوى ما أفعل، وحجتهم أن لو أراد الحمير أن لا يكونوا حميرًا لفعلوا، أوَ هل أُكرههم على ما لا يحبون؟! ثم يدّعون أن الحمير لا ينفع معهم الجدال بالحكمة أي بالبرهان العقلي فهذا فيه احترام لهم، وهم يتمردون على من يحترمهم، ظنًا في جهله أو ضعفه أو حاجته لهم، لذلك يجب قسرهم على الحق قسرًا بالقوة والضرب، فهم ليسو إلا مطايا وقد سَجُوا على العبودية والعصا، هكذا تردد على مسامعي من كثير منهم، وهذا كلام لا أحبه.

ولكني أقول إن القسر والقوة هي مرحلة من المراحل التي قد يستخدمها السلطان يومًا لإجبار من لم يرض بالحق ولم يذعن له، ولكن حين يكون الحق قد ظهر

فوق كل أمر وارتضاه الناس، ويكون حينها قد أصبح واقعًا في باطنه الرحمة وفي ظاهره من قبله الرحمة كذلك، ولكن أنا لست صاحب سلطان.

أما الآن فقد يصبح كثير منهم مطايا تُستخدم لإظهار الحق وللمطالبة به، وقد يبدع بعضهم في هذا ويجند نفسه له دون أن يكون له من الأمر شيء، فيطالبون به ويجندون أنفسهم من أجله حتى يظهر، ولكن حتى أصل مع كثير منهم إلى مرحلة المطالبة بالحق فهذا يتطلب عناء وجهدا قد تحدثت عنه كثيرًا، بل والحديث فيه يطول.

وليست المطالبة المجردة هي التي نبتغيها في الناس، وإنما الذي نبتغيه فيهم نوعية هذه المطالبة، ودأبنا أن يكون هذا الدين بعقيدته وشريعته هو المطلب الرئيسي والحقيقي للجميع، ولا تكون المصالح من أمور الدنيا مُلبَسة بثوب الإسلام أو بثوب غيره هي موضع المطالب.

ويبقى الحمير على حالهم يلبسون العمائم ويطلقون اللحى ويزدادون سوءًا كل ما كانت مطالبهم إصلاحية لترقيع واقعهم المهين تحت شعارات ما يسمى بالإصلاح.

ولِنَقْل الحمير إلى عقلاء فلا بد من التغيير، وليس غير التغيير الجذري بنافع لأحد، وهنا لا بد من الدأب الشديد في العمل والدعوة، والصبر على أذى السلطان وأتباعه وجنوده والمنتفعين من وجوده، وكلهم منتفع وراض ومطمئن طالما بقي الحمير حميرًا لا يتحولون ولا يعقلون.

وقد يصاب العقلاء بالإحباط الشديد وهم يرون الحمير يخضعون للعبودية لا يتحولون ولا يتحررون، وبكل أنواع الذل والفقر والجهل مجتمعين يرضون.

لكن الدعوة لها خيوط وآمال كثيرة، فهناك أرحام تلد أحرارًا، وهناك أصلاب تنجب رجالاً.

قد يكون من بين الحمير من يريد أن يصبح من العقلاء ولكن لم يهتد إلى الطريق، وقد يأتي من ظهور الحمير أسودٌ، ولكن حشرهم آباؤهم حشرًا في زمرة الحمير

فأفسدوا عليهم حياتهم، وأؤكد أن هناك عقلاء لا تراهم الأعين إلا وقت الحاجة والشدائد وحين المواقف الصعبة، فلا يمكن للناظر أن يبصر كل شيء، أو أن يحيط علمه بكل شيء.

وقد تقول كلمة حق لضال لا يهتدي بها، ولكن ينقلها دون أن يعلم لغيره فيهتدي بها أناس آخرون. وقد تقول كلمة حق لضال يضر بك، أو يشتمك بسببها، ولكنك تجده يومًا يحملها ويتحدث بها بين الناس. وقد يهتدي إلى المبدأ حمير كثير لمجرد سلوكك المبدئي الراقي وطريقة حياتك، ودأبك على حمل هذه الدعوة.

وهنا أقف عند ما آل إليه حواري الطويل مع حماري، حيث أنا الآن قعيد في زنزانتي أدوِّن قصة كفاحي مع حماري في غياهب السجن، إثر هجوم جمعٍ من الحمير قادهم إليه حماري، بعد أن انهالوا عليّ ضربًا ورفسًا وعضًا، وروعوا أهلي وأبنائي، وصادروا كل كتبي ذات العلاقة وما لا علاقة لها بمشروعي مع حماري، فأصابوني إصابات كان على إثرها ما عليه حالي اليوم.

ولا عجب من هذه النهاية، فهناك نهايات أكثر ألمًا وأوقع أثرًا وأشد نكالاً

والآن وقد مكثت شهورًا متعجبًا من صنيع حماري هذا مع من كان معه، فأنا لا أذكر إلا أني قد أحسنت إليه وأهله وعشيرته وأخلصت لهم، ولكني قد تعلمت الآن شيئًا لم أكن أعلمه من قبل عن عقول الحمير ونفسياتهم، وأظن أنه.....



---- انتهى ----

المؤلف في سطور

- كاتب وباحث وطبيب من المدينة المنورة
- دكتوراة في الطب العام من جامعة فيينا بالنمسا عام ١٩٩٢م
- نشاطات متعددة في المجال الصحي، والإدارة الطبية في العديد من المستشفيات الحكومية والخاصة
- دراسات خاصة أدبية وتربوية وسياسية متعددة
- إجازة في الشريعة الإسلامية
- العمل كمدرب واستشاري في تعليم وتطوير القادة
- نشاطات تربوية وفكرية واجتماعية في إطار محاضرات وندوات وبرامج عامة وخاصة بالمدينة المنورة وعدد من الدول

- من إصداراته :

  ١-لا بد من زوجة أخرى: طبعة أولى: الدار العربية للعلوم، بيروت
  طبعة ثانية: شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٦

  ٢- قلتُ لحماري: شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٦

  ٣-كتاب رجل وامرأة

  ٤-كتاب حماري في شوارع نيويورك والعراق

  ٥-كتاب المرأة السعودية تقود السيارة

  ٦-سلسلة المعرفة (مدونة) dralturki.blogspot.com

  ٧-كتاب العقيدة والآداب الإسلامية

  ٨-كتاب: الإبداع والذكاء وسرعة البديهة

  ٩-أنا فتاة في السابعة من عمري

  ١٠-الحب والسعادة والزواج والطلاق

- البريد الإلكتروني : dralturki@hotmail.com



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27238004

www.shams-group.net